الفصل الثالث

لماذا؟ ومعوقاتها

ويتضمن:

تمهيد.

أولاً: لماذا؟

1- الماضى التليد.

2- التخطيط الغربى لإلتهام العرب.

3- العدوان الصهيونى.

4- تناقض النظرية والواقع فى حقوق الإنسان.

ثانياً: المعوقات.

1- سيادة ثقافة التخلف.

2- الأمية.

3- غياب العدالة الإجتماعية.

4- كثرة الأقوال وندرة الأفعال.

«إذا كان حد الـردة لا يقع على الجهلاء، فإن المدنية تقتضى تطبيقه على المتلاعبين بالعقـول والمأجورين الذين احتلوا كراسى العلم»[1].

❐❐❐

«إن العهـد والعقـود الـت يبرمهـا الشـطار والأفاقـون والحمقـى لا ينبغـى توثيقهـا فـى دفتر العدالـة حتى لو كتبـت بريشـة ماعـت فـى مذبـح الكهنـة وذلك لأن مكيافيللى وهوبز قد صاغاها غير عابئين بأمال البسطاء والمستضعفين»[2].

❐❐❐

«إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة عـلى عالم المادة بحالـة واضحة للعيان تنطق بهـا آثاره الباقية لـلآن مثل ما ناله المصريون الأقدمون فى وادى النيل، فقد بنى المصريـون القدماء بنشـاطهم الجم صرحاً مـن المدنية المادية يبـدو أن الزمن يعجز عن محوها محواً تاماً، وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المتنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشـخصية المشكّلة بتأثير القوى

(1) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، صـ231.

(2) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، صـ115.

الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية»[1].

□□□

فمن مصر انبعثت القومية العربية، ومن مصر خرجت الجيوش لتدافع عن الكرامة العربية فى العديد من المواقع التى سجلها التاريخ بحروف من نور، حطين وعين جالوت وحرب فلسطين والعاشر من رمضان وغيرها مما لم تعه الذاكرة، فمصر هى التى قادت معارك التحرير العربية ضد المستعمر، وخرج من مصر النداء مدوياً يلف أرجاء الوطن العربى «ارفع رأسك يا أخى، فقد انتهت الإقليمية، وبدأت القومية»[2].

□□□

«وعلى الإنسان العربى أن يدرك بأن جميع الدول صاحبة الأطماع بثروات الشعوب والتحكم بمقدراتها والهيمنة على ارادتها كثيراً ما تألبت ضده ووقفت تدعم الغزوة الصهيونية بأساليب وأشكال مختلفة بمثل ما وقفت أوروبا وراء الغزوات الصليبية، وليس من تفسير لذلك سوى أن سياسات هذه الدول تلتقى دون تنسيق بينها فى العداء للأمة العربية، وفى تمكين

(1) جميس هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2001م، ص130

(2) د.محمد ممدوح، ضمن هذا الكتاب صـ54.

الغـزوة الصهيونية مـن الاحتلال والاسـتيطان لإقامة حاجز بشرى يفصل بين الأمة العربية فى آسيا وأفريقيا»[1].

❐❐❐

«ينبغـى عـلى هذا الجيل السـلطوى المتحكم أن يـدرك أنه لن يظل فى تحكمه فى مقدرات المجتمع وتطور حركته إلى النهاية، لأن لـكل جيل - مهما تحكـم ومهما طالت مدة تحكمه - نهاية محتومـة، ولابد أن يملك كل جيل الشـجاعة الكافية للسـماح للحراك الاجتماعى والسياسى والعلمى أن يتم بشكل طبيعى، وهـذه الشـجاعة هـى الإنجـاز الحقيقـى لأبناء هـذا الجيل، فالشجاعة هى أن تسمح لغيرك أن يحل محلك وأنت مرحب به بدلاً من أن يزيحك رغم أنفك حسـب حركة الحياة وصيرورة التاريخ!»[2].

❐❐❐

آلام عربية كثيرة، ومحن أشـد وطأة، ومشـكلات لا حصر لها تواجه أمتنـا العربية، ورغم كل هذه الآلام والمشـكلات إلا أن أمتنـا حتى الآن لا تجيد سـوى الـكلام، ولم تنتقل بعد إلى مرحلة العمل، وهو ما يفت فى عضد صناعة الأمة القوية.

❐❐❐

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ج1، ص38.
(2) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص177

«إنـه لمن العجيب حقاً أن تثور المشـاعر وتهتـز أركان البلاد وتكثف الجهود إذا احتُل شـبر من أراضيها، وتركن حتى الآن إلى الدعـة والهدوء وعقـول الغالبيـة الكبرى مـن المواطنين تحتلها حجافل الجهل والأمية»[1].

❐❐❐

(1) د. أحمد فتحى سرور، استراتيجية التعليم فى مصر، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص113.

الفصل الثالث

لماذا؟ ومعوقاتها

تمهيد

لعل المطالع للتاريخ والمستقرئ لأحداثه وشواهده يتنسم من حين لآخر يقظة بعض ضمائر مفكرى العروبة وإخلاصهم فى النداء بالوحدة العربية والتضامن والتكامل فى شتى المجالات لتحقيق نهضة عربية حقيقية يسعد بها العباد وترتقى بها البلاد، هذه الرغبة الحقيقية لدى هؤلاء المفكرين خرجت من مشكاة الوطنية ودافع الإحساس بالمسئولية الكبرى تجاه الوطن وما يحيط به من أخطار وما يستلزمه من آليات المواجهة، تلك المواجهة الحتمية المفروضة على كل ضمير حى يسعى نحو استعادة الريادة العربية، والمجد العربى، لتحقيق الذات العربية وانتشالها من بحر التبعية شبه المطلقة للغرب، عبر آليات تعليم وتثقيف المواطن العربى ومحاولة الارتقاء به فكرياً ووجدانياً ..

وتأتى المصائب على عالمنا العربى والإسلامى تترى، فمن عداوات خارجية، ومن اتخاذ الإسلام عدواً لدى أولئك المتغطرسين من الأمريكان وحلفائهم، ثم من انحطاط مستوى أداء الساسة أنفسهم، والذى وجه إليه الإمام محمد عبده مُر النقد فيما مضى بقوله: «أما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على

انتشال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم من الجهل بما فُرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم، و إذلال النفوس لخشونة سلطانهم، وابتزاز الأموال لإنفاقها فى إرضاء شهواتهم، لا يرعون فى ذلك عدلاً، ولايستشيرون كتاباً، ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والإقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة إلا حلّ بها العذاب»[1].

أخطار محدقة بأمتنا من كل جانب، ولعل النشار قد أحسن صنعاً إذ يسير مع قضية النهضة متتبعاً خطواتها خطوة خطوة، فمن دور الفلسفة فى صناعة تلك النهضة إلى تغيير نظرة الشرقى للغربى الذى يظنه حليفاً و إنساناً ودوداً وهو ليس أكثر من منتفع على حساب الشرقى الضعيف اقتصادياً وسياسياً ومهلهل اجتماعياً، ثم وضع السؤال على منوال غير نمطى، لماذا نحتاج إلى صناعة نهضة؟ محاولاً تقديم إجابات واقعية لا تقبل الخلاف أو الاختلاف، حيث الماضى التليد الذى تمتع به العرب والمصريون خاصة من حضارة رفرفت أعلامها على الشرق والغرب وتعلم منها العالم كله، وهذا أدعى لاستعادة ذاك الماضى بأمجاده، ثم يلفت الأنظار إلى ذاك التخطيط الغربى الدائم لالتهام العرب بشتى الوسائل، ثم العدوان الاسرائيلى الدائم على الأراضى العربية.

آلام عربية كثيرة، ومحن أشد وطأة، ومشكلات لا حصر لها تواجه أمتنا العربية، ورغم كل هذه الآلام والمشكلات إلا أن أمتنا حتى الآن لا تجيد

(1) الإمام محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، ص116.

سوى الكلام، ولم تنتقل بعد إلى مرحلة العمل، وهو ما يفت فى عضد صناعة الأمة القوية.

هذه الأسباب باختصار شديد تمثل أهم دعائم النهضة المنشودة والوحدة المفقـودة، مع الأخذ فى الاعتبار كثرة معوقات تلك النهضة من غياب للعدالة إلى سيادة ثقافة التخلف إلى ارتفاع نسبة الأمية مئوياً لدرجة مخيفة إلى غيرها مـن معوقات قد تقوض دعائم تلك النهضة بالأسـاس، ولعلها مجملة فى النقد اللاذع لحافظ المجالى إذ يتساءل مندهشاً و يندهش متسائلاً: «هل من شعب تكالب عليه البؤس خلال تاريخه كالشـعب العربى؟ وهل من أمة فى العالم مهـددة الآن فى وجودها ذاته غـير أمتنا العربية؟ وهل كُتب على شـعب أن يحـارب على ألف جبهة كجبهـة التخلف وجبهة العـدوان الخارجى، الواقع والممكن، والجبهة العقائدية كما كُتب علينا؟ و يزيد فى المأسـاة أننا الشعب المتخلـف الوحيد فى العالم الذى يملك أدوات التقدم فى العقول والموارد معاً، ومـع ذلك فإنه ليس من الصعب أن نجد تطورنا لا يزيد ولا ينقص عن كثير مـن البلدان المتخلفـة التى لا تاريخ لهـا ولا حوافز من الماضى ولا السـيولة الماليـة، هـذا إن لم نتكلـم عن مآس أخـرى يبدو عزيـزاً علينـاً أن نفارقها كالتمـزق بديلاً عـن الوحدة، والتطاحـن بديلاً عن التضامـن، وكهذا الذى يسـمونه «بالأنظمة العربية « تُرى أى نوع من البؤس لا يعانيه الآن شـعبنا العربى»[1].

حقاً، ما أكثر الهموم العربية، وما أصعب تلك اللحظات التى تمر بها أمتنا

(1) حافظ المجالى، بين التخلف والحضارة، منشورات اتحاد الكتاب العربى، دمشق، 1978م، ص8 - 9.

اليوم، والتى هى الدافع الأكبر لجيل الشباب لصناعة وحدة ونهضة لم يسبق لهما مثيل عالمياً، نهضة لن تقف فى وجهها المعوقات، فقط إذا توافرت الإرادة وصدقت العزائم واتحدت الغايات.

أولاً: لماذا

السؤال عن أسباب ودوافع صناعة نهضة عربية بالضبط يمثل نصف الطريق، لأن معرفة العلة نصف الشفاء، بالمثل تماماً كالدواء الذى يمثل النصف الآخر.

الحل إذن يبدأ من هذا التساؤل، لماذا؟

وهو سؤال واجب قبل التساؤل كيف؟ لأن كيف تابعة لماذا وليس العكس؟ فالطبيب الناجح عادة ما يُشخص الداء أولاً ثم يصف الدواء، وهذا ما نسعى إليه الآن فى وضع الأطر العامة اللماذية للنهضة العربية؟ ولما شغلت بالنا؟ ولما تثير اهتمامنا خاصة فى هذا العصر، وفى ظل هذه الظروف الضبابية؟

لعله حماس شباب؟! ولعلها إرادة نبيلة من مفكر نبيل كمصطفى النشار! ولعلها محاولة لاستعادة الماضى التليد! ولعلنا نحن العرب قد وصلنا إلى مرحلة القاع، وليس بعد القاع سوى الصعود، وقد آن الآوان.

هذه كلها مجرد افتراضات، لكنها تصدق جميعها، وما من دليل أروع من البحث عن تلك الأسباب والدوافع لصناعة نهضة عربية ولعل أبرزها ما يلى:

1- الماضى التليد:

تمتلك الأمة العربية رصيداً حضارياً ومدنياً لا حدّ له، رصيد يضرب بجذوره فى أعماق الماضى، يشهد به الشرق والغرب على السواء، فقد أشاد هوميروس فى الأوذيسة بمهارة الأطباء المصريين على سبيل المثال، وقال هيرودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنواعاً شتى من الأمراض يختص كل منهم بمرض يبرع فى علاجه، وروى أن قورش أرسل إلى مصر فى طلب طبيب للعيون وأن دارا كان عظيم الإعجاب بهم كثير الثناء عليهم، وكان الإغريق يعرفون اسم «أمحوتب» رب الحكمة فى مصر القديمة ويسمونه بلغتهم أموتيس، وقد نقلوا عن الطب المصرى كثيراً من العقاقير كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل[1].

ويشهد هنرى برستيد لهذه الحضارة القديمة بقوله: «وأهم ما تكشفه لنا هذه اللمحات التطورات الظاهرية، وذلك لأن الحياة المصرية القديمة كانت تشغلها فى ذاك الوقت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل، إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره الباقية للآن مثل ما ناله المصريون الأقدمون فى وادى النيل، فقد بنى المصريون القدماء بنشاطهم الجم صرحاً من المدنية المادية يبدو أن الزمن يعجز عن محوها محواً تاماً، وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المتنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشخصية المشكّلة بتأثير القوى الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية»[2].

(1) العقاد، المرجع السابق، ص27.

(2) جميس هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2001م، ص130.

شيء أخر ملفت للنظر فى تلك الحضارة، وهو أقدميتها عن الحضارة البابلية بما لا يدع مجالاً للشك بأن الحضارة المصرية أسبق تاريخاً فيما يقول برستيد: «ولا جدال فى أن التقدم السياسى والاجتماعى وتطور الحضارة البشرية على وجه عام، كان ظهورها كلها فى وادى النيل متقدماً بعدة قرون على أمثاله فى غربى آسيا، والحقيقة أن الحضارة فى «بابل» أتت متأخرة فى تطورها الدينى والاجتماعى والسياسى عن حضارة مصر بما لا يقل عن ألف سنة»[1].

لقد امتازت مصر بحضارة لم يسبق لها مثيل، وكفى بالأهرامات شاهداً على الحضارة والمدنية المصرية فى آن واحد، ولكن ليس من حق الأحفاد الفخر بما أنجزه الأجداد، إلا فى حالة واحدة.... وواحدة فقط، أن يكملوا البناء ويتمموا مظاهر تلك الحضارة التى هم مؤهلون لها بالأساس، أما إذا تكاسلوا أو ضلوا الطريق فيصبح فخرهم بالأجداد فخر المرضى والعجزة الذين لا يجيدون غير الشعر والكلام، وهى المأساة الكبرى التى تمر بها أمتنا العربية اليوم.

أضف إلى ذلك ما تمثله مصر للعالم حيث القلب والنبض، وحيث الوحدة والتجانس، وحيث القوة، يقول جمال حمدان: «إن مصر بتجانسها ووحدتها، تتحرك ككتلة واحدة عادة، دون أن تعرف الإنقسامات والشظايا التى تفكك كثيراً من الشقيقات العربية، مما يمنحها ثقلاً فعّالاً ووقعاً يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها، ولهذا أيضاً، فإن الاستقرار السياسى حتى فى ظل الإقطاع سمة واضحة تتباين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلاً، وفى النتيجة فإن مصر أقوى قوة فى العرب مرتين، مرة بمطلق حجمها، ومرة بتجانسها المطلق»[2].

(1) نفس المرجع، ص159.

(2) جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، ج4، ص646.

أضـف إلى ذلك قيـام تلك الحضارة القديمة على دعائـم الأخلاق والعدالة والإيمـان بالسـلم لا الحـرب، فمـن الناحيـة الأولى كان المـصرى فى عصر الأهرامات يشعر بوجود جو من الوازع الخلفى يزعه حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطلاً على ما قد مضى من تلك العصور التى لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين أفراد تلك الجماعة الأولى من طائفة الأبرياء الذين ولدوا قبل أن يوجد الشجار والسب والنزاع، على أن الاعتقاد بوجود عصر للمثال الأعلى أو على الأقل بوجود عصر للعدالة والسلام يجب أن يربط بينه وبين ذلك العصر الذى يشار إليه فى متون الأهرام بأنه العصر الذى «قيل أن يظهر فيه الموت»[1].

أما من الناحية الثانية، حيث رسوخ فكرة العدالة عند المصريين القدماء فيما يُعرف بالماعت[2].

وقد عبّر عن تجذرها فى المجتمع المصرى برستيد بقوله: « وقد انتهى الأمر بالمصريين القدماء فعثروا على بغيتهم التى نشدوها فى التعبير عن ذلك بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السـمو والرفعة فى الحياة البشرية، تلك الكلمـة هى «ماعت» التى تُعد من أقدم التعابـير المعنوية ذات المعانى المتعـددة التى وصلت إلينا من كلام بنى الإنسـان منـذ الأزمان الغابرة، وهى التى سـبق لنا التعبير عنها بالكلمات «الحق» و«العدل» و«الصدق»، وذلك لأن تلـك المعانى كلها قـد انتهى الأمر بأن مُثلـت فى لغة المصريين الأقدمين

(1) هنرى برستيد، المرجع السابق، ص130 - 131.

(2) د. مصطفى النشار، مدخل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية، دار المسيرة للنشر، سنة 2013م، ص27وما بعدها.

بهذه الكلمة الواحدة «ماعت»، وتلك الكلمة كانت تُستعمل عند أجدادهم فى أول الأمر لأداء معنى واحد فقط، هو «الحق» بمعنى «الصواب» كما نستعمل نحن كلمة «صواب» هذه فى العلوم الرياضية والأخلاقية معاً»[1].

ومن ناحية ثالثة، فقد قامت هذه الحضارة على السلم والأمن وقد أورد برستيد فى فجر الضمير ما كتبه بعض السياسيين المصريين على قبورهم، من مساعدتهم للجميع وحبهم للسلام وعملهم الدائب على استتباب الأمن، فتقرأ على المقابر عدة نقوش من قبيل: «أما من جهة الذى يفعل ما هو محبوب والذى يفعل ما هو مكروه، فإن الحياة تعطى للمسالم، والموت يحيق بالمجرم»[2] وغير هذا من عبارات تؤدى ذات المعنى.

هذا ماض الحضارة العربية وإن كنا قد قصرنا على النموذج المصرى، لأن من مصر دوماً البداية، ولأن مصر حامية الحمى، والشقيقة الكبرى، ولو نهضت مصر لنهضت الأمة العربية، وفكر النشار يقوم على قاعدة سياسية هامة، مؤداها أن مصر «رمانة الميزان»، فمن مصر انبعثت القومية العربية، ومن مصر خرجت الجيوش لتدافع عن الكرامة العربية فى العديد من المواقع التى سجلها التاريخ بحروف من نور، حطين وعين جالوت وحرب فلسطين والعاشر من رمضان وغيرها مما لم تعه الذاكرة، فمصر هى التى قادت معارك التحرير العربية ضد المستعمر، وخرج من مصر النداء مدوياً يلف أرجاء الوطن العربى «ارفع رأسك يا أخى، فقد انتهت الإقليمية، وبدأت القومية».

(1) برستيد، المرجع السابق، ص155.
(2) نفسه، ص54.

إن المـاضى الحضارى للأمة العربية بأسرها لخير دليل على رسـوخ وتجذر القيم الحضارية عربياً، ولخير دافع لاستعادة تلك الأمجاد العربية، والتى بات فجرها وشيكاً، شاء من شاء وأبى من أبى.

2- **التخطيط الغربى لالتهام العرب:**

لا ينفـك الغـرب عن التخطيط لالتهـام العرب يوماً بعد يوم، والسياسـة الغربية تقوم على مبدأ «فرق تسـد»، فهم يحاولون السيطرة على العرب مادياً واقتصاديـاً وسياسـياً، يريـدون أن يكونوا هم الأقوياء عـلى الدوام، ونحن الضعفـاء على الـدوام، لأن الحكم دوماً للأقوى، أمـا الضعيف فليس له أدنى قـدرة على القبـول أو الرفض فضلاً عن صناعة القـرار ذاته، هو لا يملك غير السمع والطاعة، وهم لا يريدون منا غير ذلك.

لذا، اتجهت مخططات الغرب للسيطرة على العرب اقتصادياً وسياسياً، فمن الناحية الاقتصادية، ومع بزوغ شـمس العام 1995م، تحولت اتفاقية الجات للتجارة والاقتصاد إلى منظمة للتجارة العالمية عُرفت باسم (WTO) إمعاناً فى زيـادة الهيمنة الغربية على عالمنا العربى، حيث مثلت منظمة التجارة العالمية الضلع الثالث فى مثلث تعزيز موقع زعامة الولايات المتحدة للاقتصاد العالمى الجديد، وأصبحت أمريـكا مهيئة لقيادة العالم عبر آليات تتمثل فى صندوق النقـد الـدولى والبنك الدولى للإنشـاء والتعمير ثـم منظمة التجـارة العالمية (الجات)[1].

(1) د. مصطفى عبد الغنى، الجات والتبعية الثقافية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999م ،ص9.

وكان المقصود الرئيس من ذلك استمرار الهيمنة الغربية اقتصادياً لأجل فرض واقع جديد يرضى به الطرف الأضعف فى المعادلة فيما يقول مصطفى عبد الغنى: «ومن المهم أن نذكر أن هذا التخطيط و إن بدا أنه يبدأ على المستوى الاقتصادى فإنه كان يستهدف السيطرة الشاملة بكل أدوات المعرفة التى كان تراكمها منذ هذا الوقت يُفضى إلى واقع جديد، وبذلك فإن بداية العمل منذ منتصف الأربعينات حتى اليوم ضد الدول النامية، وبلادنا منها، كان يعنى تدشين مرحلة الاستعمار الجديدة للسيطرة وبشكل أدق، لدمج الدول الكبرى فى الاقتصاد العالمى الذى كان يعمل للسيطرة عليه منذ هذا الوقت»[1].

وفى ظل هذه المحاولات الغربية المستمرة للسيطرة على العرب أو التحكم حتى فى هويتهم الفكرية فقد تسلل الغرب إلى مجال الإعلام، ففى غيبة الوعى العربى والإمكانات الضعيفة نجد أن الفضاء الإعلامى العربى يسيطر عليه عدد كبير من الدول الكبرى ممن يرسمون سياستهم بالتنبه إلى الفضاء السمعى البصرى وأثره فى ثقافة المنطقة العربية.

إن هيئة الإذاعة البريطانية تمتلك محطتين للبث، احداهما فى جزيرة قبرص، والأخرى فى عمان، فضلاً عن عشرين موجة لبرامج تغطى ميادين التعدد اللغوى فى المنطقة كما أن الحضور الفرنسى يتمثل فى إذاعتين (مونت كارلو «الشرق الأوسط» و إذاعة فرنسا الدولية) فضلاً عن الحضور الفرنسى الرسمى إعلامياً فى المغرب خلال إذاعة المتوسط[2].

(1) نفسه، ص15.

(2) د. مصطفى عبد الغنى، المرجع السابق، ص33.

أما على الصعيد السياسى، فإن العجرفة الأمريكية قد وقفت على شاطئ لاحدّ له فيما يقول النشار منتقداً تلك السياسية الأمريكية المتعجرفة: " لقد أصبحنا فى عصر القطب الأوحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم، وكم تغنى قادة هذه البلاد الغنية بما تعيشه من حريات ومن حفاظ على حقوق الإنسان، وكم كان حلماً جميلاً لكل إنسان على ظهر هذا العالم وخاصة فى بلاده النامية أن يذهب إلى الولايات المتحدة رمز الثراء والحرية واحترام الحقوق، لكن كل ذلك انهار فجأة بفعل التجبر الذى مارسته أمريكا حيث استغلت قوتها العسكرية الغاشمة وهاجمت ما صورته للعالم على أنه السبب وهو «الإرهاب»! ذلك الإرهاب الذى صوروه فى شخص بن لادن فى أفغانستان وصدام حسين فى العراق وكالوا لهما التهم بامتلاك أسلحة الدمار الشامل وقتل المدنيين الأبرياء، وبدلاً من أن يبذلوا بأنظمتهم المخابراتية الجهد فى الإمساك بهؤلاء ظلماً وعدواناً بحجة أنهما مع حاشيتهما المسئولون عن هذه الأحداث الإرهابية!! خططوا لاحتلال أفغانستان والعراق، فكان أن شهد عصرنا أشد صور الاستعمار والغزو فظاعة وتجبراً».

ويستطرد النشار قائلاً: «لقد انتهك الأمريكيون كل حقوق الإنسان التى عبرت عنها تلك المواثيق الدولية المتعارف عليها ومسحت بها بلاط المنظمة الدولية التى أنتجتها الأمم المتحدة!! وشهد العالم على شاشات التلفزيون وعبر كل أجهزة الإعلام المقروءة والمسوعة كم الأسلحة المدمرة التى استخدمتها الولايات المتحدة فى تدمير الأرض والزرع وفى قتل الأبرياء فى البلدين الإسلاميين!!

وكم انتهكت الولايات المتحدة بجنودها المأجورين والمتحالفين معهم من حقوق للبشر الذين تعاملوا معهم سواء كانوا جنوداً محاربين مدافعين عن أرضهم وحقوقهم أو كانوا بشراً عاديين أبرياء!»[1].

كل هذه الأحداث التى تبرز غطرسة الطرف الأقوى وخضوع الطرف الأضعف، أليست مبرراً لصناعة نهضة عربية وحدوية يكون لها اليد العليا والسمع والطاعة والقدرة على صناعة القرار العالمى الذى يتمتع بالثقل و ينال احترام الجميع.

هل هانت علينا أنفسنا كعرب إلى هذا الحد مع ازدياد اشتعال قلوبنا بكراهية أمريكا وحلفائها من حزب الشر: «لقد أدت الحروب التى أشعلتها أمريكا واسرائيل فى المنطقة العربية والكثير من مناطق العالم الإسلامى إلى تأجج مشاعر الكراهية والبُغض لكل ما هو أمريكى، إن هذه الحروب وتلك الصراعات التى أججتها أمريكا وحليفتها اسرائيل، وذلك التحالف الذى شكّل بزعم مقاومة الإرهاب قد حوّل المشاعر لدى شعوب العالم الثالث عامة والشعوب العربية والإسلامية على وجه الخصوص من مشاعر الحب لأمريكا وأوروبا كنموذج للتقدم والرفاهية والمساواة والحفاظ على الحقوق إلى مشاعر العداء والكراهية والغضب المكتوم، ولا شك أن هذا الغضب العارم هو الأساس الذى يستند عليه كل تصرف وكل رد فعل يسميه الغربيون إرهاباً و يسميه العرب والمسلمون دفاعاً عن الأرض والعرض وهو المعروف فى العقيدة الإسلامية بالجهاد وهو فريضة على كل مسلم ومسلمة

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظرى والواقع العملى، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط1، سنة 2004م، ص10 - 11.

حين يجد الجد ويحين وقت مقاومة المحتل ورفض اغتصاب الأرض والاستيلاء على الثروات، ولا شك أن هذه اللحظة للثورة الشاملة ضد المحتلين الجدد قد اقتربت بدرجة قد تقلب الموازين العالمية»[1].

والسؤال الآن متى هذا الانقلاب؟

لعله وشيك، قريب جداً، خاصة مع ازدياد تلك الغطرسة الأمريكية التى نهبت ثروات وطننا العربى فيما يقول النشار: «وإذا كان ضمير العالم المتمدين صار يعتقد أنه لا جدوى للحديث عما يحدث من القتلة الإسرائيليين تجاه أبناء فلسطين وأن هؤلاء القتلة قد انعدم عندهم الضمير الإنسانى وأصبحوا فوق القانون وضعياً كان أو إلهياً، فإن ما يجرى فى العراق يُعد صورة بالكربون مما يجرى فى فلسطين، فهاهم الجنود الأمريكيون يقتلون العراقيين فى كل مكان من أرض العراق دون تمييز بين من يحمل السلاح لمقاومتهم وبين المسالم الذى كف أذاه، وقد شهد شاهد من أهلهم حينما قال ضابط كبير فى القوات البريطانية التى تشارك فى الهجمة الاستعمارية البربرية على العراق يصف ويعلق على ما يفعله الأمريكيون «إن القوات الأمريكية لا تشعر بأدنى قلق للخسائر العراقية فى الأرواح»، وهو موقف مأساوى ويثير الرعب، وقد أشار نفس الضابط البريطانى إلى أن القوات الأمريكية تعمد إلى التبسيط الشديد المنافى للواقع حيث يبدو أنه من الصعب بالنسبة لها أن تميز بين من يواجهونا ومن لا يواجهونها وترى أنه من الأسهل جمع كل العراقيين فى سلة واحدة باعتبارهم « كائنات شريرة» أى يجب قتلها سواء واجهتهم أو لم تواجههم، هكذا يفهم الغزاة الأمريكيون

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص30 - 31.

المعاصرون أبرز من يتشدقون بحقوق الإنسان حق الحياة بالنسبة لشعب العراق، إنه يعنى عندهم فى الواقع الحى ضرورة الموت حتى لا ينغص عليهم هذا الشعب حياتهم واستمتاعهم بخيرات العراق وثرواته الطبيعية!! لقد حطم ما يجرى فى الواقع تلك الرؤية الفلسفية الحالمة القائلة «إن للأبرياء حقاً فى ألا يُحرموا من الحياة»[1].

إن هذا التخطيط الغربى لالتهام العرب ذا جذور تاريخية موغلة فى القدم ولا زالت حتى اليوم، مستغلين فى ذلك التفرق والتشرذم العربى، لذا فإن الوحدة العربية هى أحد أهم دعائم صناعة تلك النهضة التى نسعى إليها حثيثاً، خاصة لما يحدث على الأراضى العربية من اعتداءات صهيونية لا يقبل بها الضمير العربى أبداً.

3- العدوان الصهيونى:

لعل اليوم أدعى إلى صناعة الوحدة والنهضة العربية من الأمس، خاصة بعد كثرة الاعتداءات الصهيونية على شعبنا العربى الفلسطينى وتنوع صور تلك الاعتداءات وسط صمت عالمى مريب، يتحمل العرب وحدهم تبعاته.

وعلى الإنسان العربى أن يدرك بأن جميع الدول صاحبة الأطماع بثروات الشعوب والتحكم بمقدراتها والهيمنة على ارادتها كثيراً ما تألبت ضده ووقفت تدعم الغزوة الصهيونية بأساليب وأشكال مختلفة بمثل ما وقفت أوروبا وراء الغزوات الصليبية، وليس من تفسير لذلك سوى أن سياسات هذه الدول تلتقى دون تنسيق بينها فى العداء للأمة العربية، وفى تمكين

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص20.

الغزوة الصهيونية من الاحتلال والاستيطان لإقامة حاجز بشرى يفصل بين الأمة العربية فى آسيا وأفريقيا[1].

إن هذه الدول على اختلاف أيديولوجياتها ونظمها السياسية والاقتصادية تلتقى على محاربة أى نهضة عربية أو وحدة قومية بدافع ابقاء الوطن العربى مجزأ مفتت الأوصال، فيسُهل عليها تنمية اسرائيل عسكرياً واقتصادياً ويضمنون بذلك التفوق الإسرائيلى من ناحية، والتشرذم العربى من ناحية أخرى.

ولم يفوت اليهود تلك الفرص إلا وأساءوا استغلالها أسوأ استغلال، حيث امتدت أيديهم بالعبث والإفساد لكل شىء، ومن يطالع كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» يدرك مدى الخسة التى يفكر بها هؤلاء، ومدى ما يُضمرونه للبشرية من أحقاد وكراهية لا حدّ لهما، فهم يريدون السيطرة على التعليم والصحافة والإعلام، بل وحتى على الأعمال الفكرية التى تقوم بنشرها دور النشر، إنها الإمبريالية الاستعمارية التى يمكننا أن نطلق عليها لقب «إمبراطورية الشر»، حيث لا يأتى من ورائهم أدنى خير، ولكن ادعائاتهم بالسلام والمفاوضات إنما هو على سبيل كسب الوقت للتفكير فى الضربة التالية.. والخيانة التالية.. والغدر من كل نوع.

ولا أدل على ذلك من افتخارهم بانتشارهم فى العالم ليسهُل عليهم إثارة الفتن وقتل السلام، فقد جاء على لسان أحد حكمائهم ما نصه: «من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت الذى يبدو ضعفاً فينا أمام العالم، قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية.

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ج1، ص38.

ليس لدينا أكثر من أن نبنى على هذه الأسس لكى نصل إلى أهدافنا»[1].

بل إن أحد حكمائهم يعترف صراحة بقوله: «نحن اليهود لسنا شيئاً إلا مفسدى العالم ومدمريه، ومحركى الفتن فيه وجلادية»[2].

وتستفحل الأخطار الصيهونية يوماً بعد يوم، وتشتد وطأتها ساعة بعد ساعة لتفرض اسرائيل شروطها على الدوام بلاءاتها الأربعة:

- ❐ لا للدولة الفلسطينية.
- ❐ لا للمفاوضة على القدس.
- ❐ لا لأكثر من حكم ذاتى لسكان الضفة والقطاع.
- ❐ لا للمفاوضة مع أشخاص غير مرضى عنهم!

إنها شروط الأقوى، ولا ضير أن يفرض الأقوى شروطه طالما وجد من يرضخ له و ينصت إليه، وطالما وجد من يرتضى بالعبودية والذلة.

ومورس الضغط من كل نوع على شعبنا العربى الفلسطينى، وأصبح منقسماً على نفسه، حيث منهم من يرى امكانية الحل على أساس إقامة فلسطين على جزء من تراب الوطن، ولعل هذا الاعتقاد نتج عن أسباب ثلاثة فيما يذهب د.عودة بطرس، قد أفلح العدوان الصهيونى فى صنعها:

الأول: عملية غسيل المخ التى تستهدف اشعال الإقليمية فى نفس المواطن

(1) الخطر اليهودى، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسى، دار الكتاب العربى، القاهرة، 1951م، ص108.
(2) المرجع السابق، ص1.

الفلسطيني ودفعه إلى اليأس من القدرة على استرداد الوطن و إرهاربه من احتمالات تزايد الهجرة اليهودية و إقامة المستوطنات فى القدس والضفة والقطاع.

الثانى: استغلال الأوجاع الحياتية اليومية للمواطن البسيط دون أن تحرك الدول العربية ساكناً.

الثالث: ما يحاوله البعض من اقناع الشعب بأن الدولة الفلسطينية أياً كانت مساحتها ومقوماتها سوف تكون قاعدة للحشد والانطلاق للتحرير الشامل[1].

ولا زال شعبنا العربى منقسماً تجاه تلك القضية دون محاولة وضع حلول جذرية لها، بل إن شعبنا الفلسطيني ذاته، المعنى الأول بالأمر قد انقسم على ذاته بين من يرى امكانية التسوية على جزء من تراب الوطن والاعتراف بإسرائيل، وبين من يرى الثورة والإنتفاضة حتى التحرير الشامل.

وليس علىّ هنا أكثر من استقراء نصوص النشار، تلك التى أوردها فى أكثر من موضع سبق ذكرها رافضاً الإنتهاكات الصهيونية ومنددا، ولكن ليس من شأنه أن يقول كلاماً لا يساوى ثمن الحبر ولا الموقع الذى احتله فى أحد الجرائد الكبرى التى تنشره، فليس النشار ممن يجيدون الكلام بلا فعل، ولكنه حتماً يسوقنا على الدوام إلى الدواء الناجح للداء، فليس هناك من مبرر لتلك الإعتداءات الصهيونية، لا أقصد مبرر حدوثها، ولكن مبرر قبولها، سوى ضعف الإرادة العربية، وضعف القرار العربى وكفى بنقده

(1) د. عودة بطرس، الوحدة العربية هى الحل، ص58.

للدور الهزيل لجامعة الدول العربية إزاء المشكلات التى لم تستطع لها حلاً ولا ربطاً.

إنـه بحق واقع مرير، متـأزم من كل ناحية، شـديد التعقيد حيثما وليت وجهك، فصناعة وحدة عربية هى أحد آليات النهضة، وصناعة نهضة عربية سـبيلها شاق، ليس لضعف الإمكانيات بقدر ما هو ضعف الإرادة السياسية العربية ونحن كالعادة لا نتشـدق بالسـلام مع اسرائيل لأنـه لن يجدى نفعاً، فليس مع هؤلاء الخونة سلام، وكما أنه لا تصالح فى الدماء أبداً، فإنه لا يمكن أن تقوم تسوية سلمية بين طرفين متناقضين تمام التناقض، أحدهما يمثل الحق المطلق، والآخر يمثل الباطل المطلق، أحدهما يمثل الحقيقة والآخر نموذج حى للكذب والنفاق والمخاتلة..

أى سلام هذا بغير خروج المحتل من كافة الأراضى العربية؟!!

وعـلى صانعى القـرار العربى أن يدركـوا إذ لم يدركـوا أن القرآن الذى يدّعـون أنه دسـتورهم لم يتحدث عن سـلام مع اليهـود، ولكنه تحدث عن حرب، عن تطاير لـرؤوس اليهود، عن تخريب لبيوتهم وهروب منها وفزع وجـزع لا حـدّ لهـما ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] إنه وعد الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، وكان وعد ربك مأتيـا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17 - 18].

أليست هذه نصوص خالدة فى الكتاب الخالد!!

الحديـث كلـه عن حـرب لا عن سـلام، حديث عـن العـدة والإعداد

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 60]، من قوة يا أمة الإسلام، أى قوة، قوة العلم، وقوة الجيش، وقوة الاقتصاد، وقوة الإرادة، وقوة المكر والدهاء، وقوة السياسة والساسة.

ولم يطلب مصطفى النشار أكثر من تلك القوة فى صناعة تلك النهضة العربية التى نزعم أننا قادرون على إنشائها، الخلاف كله مع النشار أنه يؤكد على أن بدايتنا لن تكون من العدم، ولكنها مرتكزة على حضارة الماضى التليد ومدنيته التى أشاد العالم بها، ولكنى مؤمن بأن بدايتنا اليوم هى من العدم، ولن ترتكز إلى الماضى أبداً، لسببين رئيسيين، الأول أن الظروف الاقتصادية والسياسية العالمية قد تغيرت إلى حد كبير وليس فيها أدنى مجال للفخر بالماضى، بل المجال كله لمن يصادر على المستقبل و يقفز فوق التاريخ، والثانى أن جانب الحضارة عندنا قديماً كانت أكبر من جانب المدنية، أما اليوم فنحن لسنا فى حاجة إلى حضارة لأنها فعلاً موجودة، ممثلة فى تراثنا وعقيدتنا ومبادئنا التى ما استطاع الزمن إلى تغييرها سبيلاً.

إن كثرة الاعتداءات الإسرائيلية على شعبنا العربى والتى يتعذر حصرها هى أحد أهم دوافع صناعة نهضة عربية، بل لعلها تكون الدافع الأبرز والأقوى ضمن هذه الدوافع جميعاً، فهل يقرأ الشعب العربى، وهل يعى الدرس، وهل يستفيد من أحداث التاريخ وعبره، ذلك كله مرهون بمدى وعى هذا الشعب، أو بالمعنى الأدق، مرهون بمدى القدرة على صناعة الوعى.

4- تناقض النظرية والواقع فى حقوق الإنسان:

فرق كبير بين القول والفعل، ونقد أكبر لمن يقول ما لا يفعل، وكفى بنقد

القرآن من نقد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: 2 - 3].

والمتابع للسياسة العالمية يجد إنفصالا لا أمل فى التئامه بين القول والفعل، لدرجة جعلت النشار يصدر كتاباً بعنوان «حقوق الإنسان المعاصر بين النظرية والتطبيق» ضمن فيه تلك التناقضات التى يبدئها بذاك التعجب شديد العجب: «لقد أصبحت القوة العظمى المنوط بها حماية حقوق الإنسان والحرص على تنفيذها وتطبيقها هى التى تدوسها بالأقدام وتهدد بالمزيد من ذلك لكل من تُسول له نفسه مخالفتها الرأى!!

إذن ماذا تفعل شعوب العالم الأخرى غير الصياح فى وجه المحتل الغاصب، وماذا تملك الشعوب المقهورة والمحتلة غير أن تكافح لنيل حريتها المسلوبة ولاسترداد ثرواتها المنهوبة»[1].

حقاً ماذا تفعل هذه الشعوب المغلوبة على أمرها؟ بل وماذا تملك لصناعة الفعل بالأساس..

لقد امتلأ واقع الحياة بالتناقض، فالجلاد أصبح قاضياً، والمغصوب والمنهوب أصبح معتدياً فى عُرف الجلاد الحقيقى، اختلطت المعايير، وأصبحت الموازين غير مفهومة، أو هكذا يدّعون، يقول النشار: «إن الحقيقة التى لم تعُد خافية على أحد فى العالم المعاصر أن واقع الحياة العملية للإنسان المعاصر وخاصة فى مناطق معينة من العالم وخاصة فيما يطلق عليه العالم الثالث يشهد أسوأ صور التناقض بين الخطاب المكتوب والشفهى حول حقوق الإنسان وما

(1) د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص12.

يعانيه هؤلاء البشر فى واقعهم المعاش فالإنتهاكات المتتالية والمتعمدة من قبل دول الشمال وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لدول الجنوب والتعدى على حقوق الأفراد والجماعات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً أصبح هو السمة الغالبة التى لم تعُد تُجدى معها أى محاولة للفت أنظار زعماء هذه الدول أنهم تجاوزوا كل الخطوط الحمراء، فمن فى يده القوة العسكرية يفرض ما شاء من أمور على كافة الأصعدة الاقتصادية والسياسية على من لا يملكونها حتى وصل الأمر إلى حرمانهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أبسط حقوقهم حتى ولو باستخدام الحجر فى مواجهة الطائرات والدبابات والصواريخ، لقد اختلطت المفاهيم والإصطلاحات بحيث أصبحت أقرب ما تكون إلى الفراغ من المعنى، فالدفاع عن العرض والأرض بأبسط الوسائل أصبح يسمى إرهاباً! والدول رمز القانون والنظام صارت هى من يفرض الفوضى ويخترق كل الأنظمة والقوانين! إن المحتل صار مواطناً، والمواطن صار لاجئاً وإرهابياً، إن المعتدى صار هو المعتدى عليه، إن طالب السلم والسلام صار هو المحارب والإرهابى، بينما صاحب آلة الحرب وصانع المعارك تلو المعارك هو الذى سارع إلى حديث السلم والسلام»[1].

أرأيتم إلى أى حدٍ بلغ التناقض؟[2]

(1) د. مصطفى النشار، المرجع السابق ص17.

(2) جمع النشار فى هذا الكتاب صوراً من النصوص العالمية للمنظمات الدولية لحقوق الإنسان كملحق للكتاب ليقدم للقارئ الفتنة التى عبرّ عنها بقوله: « فقد حاولنا فى هذا الكتاب ألا نكتفى بالدراسة النظرية المتأملة لقضية حقوق الإنسان وما يعتريها فى عصرنا من تناقض بين الخطاب النظرى والواقع العملى، وإنما قدمنا للقارئ العزيز حتى تكتمل الصورة وتصل الرسالة التى تود إيصالها له كاملة نماذج من الوثائق=

المواطن الذى هو أصل البلد يصبح إرهابياً و يتحول من السكن الآمن إلى اللاجئ مهدر الحقوق و فى بعض الأحيان مهدر الدم!!

أليس هذا هو حالنا نحن أبناء العروبة، وحالنا نحن خير أمة أخرجت للناس، نفتخر على الدوام بخيرية لم نقدم دلائلها!!

انقلبت الموزاين لتدور مع القوة وجوداً وعدماً..

دعونا نكن منصفين وواقعيين يا سادة، فالعالم لا يعترف بغير الأقوياء، لا مكان فيه أبداً للضعفاء، لعل هذه مُسلّمة منذ أشرقت الشمس على الأرض، ومنذ أن سجلت الفلسفة أراء فلاسفتها، خرج علينا ثراسيماخوس السوفسطائى ليخبرنا علانية بأن القانون قانون الأقوى لا قوة القانون!!

وها نحن بعد ردح من الزمن تجاوز الثلاثة آلاف سنة لم نستطع تجاوز تلك المقولة، بل زادها الزمان قوةً ورسوخاً، وأصبح العالم اليوم لا يعترف إلا بحق الأقوياء، لا بقوة الحق، وكم من وقائع أثبتت وأيدت، لعل أبرزها ثلاثة مشاهد حية لا تفارق ذهنى على الدوام، المشهد الأول، ما حدث فى مايو 1990م حيث أقامت الصهيونية العالمية الدنيا من شرقها إلى غربها على قدم وساق لأن قبوراً يهودية فى جنوب فرنسا تعرضت للتشويه، فدبرت المظاهرات فى أنحاء العالم من أوروبا إلى الأرجنتين، وشارك فيها رؤساء

= الخاصة بالخطاب النظرى الذى أقرته الاتفاقيات والعهود والمواثيق الدولية حول حقوق الإنسان وكذلك نماذج من الوثائق التى تكشف عن هذا الهدر المتعمد لكل حقوق الإنسان فى ظل الإحتلال الغاشم للعراق، وبالطبع فإن ما يجرى فى العراق يجرى مثله وأكثر فى فلسطين على يد الاسرائيليين ويجرى مثله كذلك على أرض أفغانستان» انظر د. مصطفى النشار، حقوق الإنسان المعاصر، ص13.

دول مثل الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران ورئيس الأرجنتين ذا الأصل عربى كارلوس منعم وغيرهما ممن ذهبوا نفاقاً للسامية.

والثانى يأتى صورة بالكربون من هذا المشهد رغم بعده الزمنى بما يقرب من أربع وعشرين عاماً، حيث تظاهر رؤساء العالم كله، بما فيهم قادة عرب سجلهم التاريخ فى قاع عاره وخزيه، إثر وقوع اعتداء على صحيفة شارل إبدو الفرنسية عقب إساءتهم للنبى الكريم ﷺ.

امتلأت مانشتات الجرائد العربية بتعبيرات الإدانة والشجب والرفض، وتكلم الإعلام صارخاً وباكياً، وأنفقت الدول العربية مليارات شجب وإدانة وتعبير عن الرفض القاطع لمثل هذه الوقائع، وما اعترضنا أبداً على هذا الرفض فالدم كله حرام، ومثل هذه الأحداث المؤسفة التى تتم باسم الإسلام وهو منها براء، فهى لا تعرف من الإسلام أدنى صلة لا جوهراً ولا عرضاً، كل ذلك من المسلمات التى لا ريب فيها، لكن العجب كله من تعدد المكاييل وتنوعها..

أين كان العالم حين اجتيحت غزة مئات المرات؟

وأين كان العالم حين اجتيح الجنوب اللبنانى مئات المرات؟

وأين العالم اليوم من المجازر السورية؟

بل أين الرئيس الفلسطينى عباس أبو مازن الذى وقف فى هذه المظاهرة العالمية على أرض فرنسا منددا بهذا الاعتداء، ومخلفاً على أرضه العربية والإسلامية ألوف الشهداء على أيدى الصهاينة ومثلهم مصابين؟!

أين الكرامة العربية إذن؟ وأين موازين العدالة الدولية؟

أما المشـهد الثالـث، حيث تحرك تحالـف دولى تقريباً انضـم إليه العالم بخيله ورجله تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحرير الكويت!!

وبعدها ذات التحالف لغزو العراق!!

والسؤال الآن لماذا بالذات العين على دولنا العربية وأشقائنا فى الخليج؟!

هل تجامل أمريكا؟

وهل تعلن الولاء والطاعة لـدول الخليج حتى تذهب إلى الكويت بزعم تحريرهـا، ثم تذهب إلى العراق بزعم تخليص شـعبها من الديكتاتور صدام حسين؟!

لا هذه ولا تلك يمكنهم أن يقدموا أدنى درجات الإقناع!!

فأمريكا لم تدخل الكويت تحريراً وإنما دخلت طمعاً، وقد تقدم أنها لا تنفق ديناراً إلا وتأخذ مقابله أربعة أضعاف!!

وهى بالقياس لم تدخل العراق إلا طمعاً فى استنزاف ثرواته وخيراته، أياً كانـت الحجة، وأياً كان الزعم، وأياً كانـت العقول الغبية التى تنفذ بأيديها العربية تلك المخططات الغربية والأمريكية الدنيئة.

وإلا، فاسـألوا أمريكا ذات القواعد العسـكرية فى شرق العالم وغربه، لماذا لم تتدخل لإنقاذ الشـعب السـورى من نيران بشـار وقذائفه وبراميله المتفجـرة وهى الراعية الأولى فى العالم زعماً للديموقراطية وحقوق الإنسـان والعدالـة، وتلك المعـانى والقيم الفضفاة التى ما هى إلا سـتاراً يخفون ورائه أطماعهم الدنيئة وخططهم القذرة للاستيلاء على الثروات العربية واستنزاف موارد الشعب العربى..

أقـل تقديـر يا عقلاء العـالم بشـتى أيديولوجياته وعقائـده، ألا تفرض الناحيـة الإنسـانية عـلى القـوى أن يتدخل لحمايـة الضعيف ولـو من باب المروءة والشهامة.. ولو من باب الرحمة والتراحم.. أليست هذه قيم إنسانية بالأساس.

أليست الدماء التى تسيل فى كل شبر من الأرض العربية السورية ستُسأل عنها أمريكا ومحاور الشر من حلفائها؟!

إذن دعونا نلجأ إلى الله ....

دعونا نحكى كل شىء لله مثلما قال الطفل السورى سأحكى كل شىء لله.

سأحكى كل شىء لله:

الطائرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله، وأصوات المدافع والصواريخ وآلات الفتـك تمـلأ المكان، حصـار فى الجو والأرض، ومـن الممكن أن يصل إلى مـا تحت الأرض، لأنه حصار الظلـم والبغى، وقتل الظالمين والبغاة، القتل على الرأى والفكـر والمذهب، قتال أيسره أن تطير الرؤوس وتنخلع القلوب وتطـير الأرواح بالشـكاية إلى رب البريـة، إنها الفتنة الكـبرى فى التاريخ، الفتنة الأشـد فتكاً من فتنة الإمام على ومعاوية، تلكم هى المحنة السورية، التى تركت فى القلب غصة لا يمحو الدهر أثرها أبداً.

تحـت هذا الحصار غـير المبرر، وفى خضم أصـوات المدافع والطائرات، وتحت وطأة البراميل المتفجرة والقذائف القاتلة، يخرج صوت طفل سـورى يحتـضر، يخرج خافتـاً، ضعيفاً، ملخصاً الحـال والمسـتقبل والواقع فى ثلاث كلمات «سأحكى كل شىء لله».

الواقع فى مرارة الأسى، والمستقبل فى مرآة الواقع...

لم يرد هذا الطفل أن يرحل فى هدوء، ويموت فى هدوء، شأن الآلاف من إخوانه الذين سبقوه!!

فكم من طفل سورى أسلم الروح بلا شكاية!! وكم من طفل قُتل ولم يدر لم قتل، وكم وكم...

لم يعترض أحد، لم يقل أحدهم يوماً ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8-9]، لم يُطل أحدهم الشكاية أو يقصر، بل كثيراً ما رحلوا دون أن نسمع لهم صوت أو نحس منهم ركزاً..

لكن هذا الطفل يأبى إلا أن يطلق مدفعاً مدوياً أشد قتلاً وفتكاً من مدافع بشار، فإذا كانت مدافع بشار تقتل الحياة وتسلب الأرواح فإن مدفع هذا الطفل تهب الحياة من جديد لبنى الإنسانية، يمنحهم الضمير لمن فقده منهم، ويكون حجة على كل من يأبى عودة الضمير.

صوت إيقاظ الإنسانية لمن يراجع نفسه ويعلم أنه يسير على الطريق الخاطئ، طريق اللاعودة، طريق إزهاق الأرواح البريئة، وقتل أنفس خلقها الله لتعيش لا لتقتل أو تسلب منها الحياة للطائفية أو المذهبية أو الخلاف فى الرأى.

وكم بلغ ذكاء هذا الطفل، حقاً، إنه ذكاء الشهيد، حتى ولو كان هذا الشهيد طفلاً..

لقد جرَّب كل مخلص من بنى الإنسانية اللجوء إلى المنظمات الإنسانية لحل الأزمة السورية، وما أفلح أحد فى مسعاه...

لقد حاول البعض من أرباب الضمائر الحية إيقاف آلة القتل المتعمد تلك والوقوف فى وجه نزيف الدماء الذكية هذه، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، لا لعدم صدق نواياهم، ولكن لعمى قلوب القاتلين وذهاب أفئدتهم وانعدام ضمائرهم، وتبلد مشاعرهم وأحاسيسهم .. فلم ينصتوا لصوت العقل، ولم يستجيبوا لأى من المبادرات التى طُرحت، واستمروا فى قتل الأبرياء والعُزل والأطفال، بلا رحمة، وبلا ضمير، وبلا مشاعر.....

ما أسوأ تلك الحياة إذن .. حياة القتل والظلم والبغى!!

ويسلم الطفل روحه وهو يعلم تلك الحقائق، يعلم أن هناك قلوباً نقية رغم قلتها، وأن هناك قلوباً باغية وقاتلة وظالمة رغم كثرتها، وتيقن أن الإنسانية فقدت كل معنى لإنسانيتها، فلم يشأ أن يلجأ إليها هذه المرة، لأنه لا تجربة بعدها، فقد كانت تلك هى المرة الأخيرة التى يشكو فيها حال أمته السورية ومن ورائها الأمة العربية، لأنها هى المرة التى خرجت روحه على إثرها، فلم يشأ أن يلجأ للبشر، وإنما لجأ مباشرة إلى الطريق الذى لا يخيب سالكة أبداً، فقال «سأحكى كل شىء لله»...

نعم يا ولدى، فالله رحيم... كريم... حليم... هو وحده الجدير بالشكوى، وهو وحده الجدير بالسؤال والتذلل، وهو سبحانه العليم بك وبأمتك السورية والعربية، وهو وحده المطّلع على خبايا النفوس ومكنونات القلوب وهمسات الصدور... هو وحده العليم بكل شىء، ما تسقط من ورقة فى ظلمات البر والبحر والجو إلا يعلمها، فهو سبحانه الأحق بالسؤال والأجدر بالإجابة.

لكن المشكلة عندك أنت، لأنك الذى ستحكى، والله حتماً سيسمع لك

حتى النهاية، فى موقف سيراه الأولون والآخرون .. سينصت لك، وسيرق لحالك، سيرحمك رحمة لم تر عيناك مثلها قط، ويسمع لك ما لم يسمع لك أحد، وسيطيب خاطرك كما لم يطيبه أحد، وسينصت لشكواك كما لم ينصت أحد، لكن يا تُرى، هل تقتصر شكواك على حزب الظالمين الذين قتلوا، أم ستطول المكاسين الذين عاونوا، أم ستطول حتى أولئك الصامتين الذين رأوا وسكتوا إما عجزاً، وإما جنباً، وإما إيثاراً للحياة الدنيا!!

هل ستطول شكواك الجميع، بما فيهم أرباب الضمائر الذين قتلتهم كلمتك تلك، وبما فيهم أصحاب القلوب المرهفة الذين ابيضت أعينهم من الحزن، بما فيهم أصحاب الأعذار الذين عذرهم الله من قبل، أم أن شكواك ستقتصر على حزب الظالمين والمكاسين الذين قتلوا، والذين أمدوهم بالسلاح، والذين أيدوا، والذين هللوا لسفك الدماء ورقصوا فوق جثث الشهداء!!

هنيئاً لك يا ولدى، فأنت الرابح فى كل شىء، ونحن الخاسرون فى كل شىء....

أنت الرابح لأنك شهيد فى فتنة لا ناقة لك فيها ولا جمل، لا مغنم لك فيها ولا غاية...

وأنت الرابح لأنك حملت الشكاية إلى الله لا لأحد سواه..

وأنت الرابح لأنك رغم براءة طفولتك، وحداثة سنك، قد عبّرت عن المأساة بما لم يستطعه الطاعنون فى السن، وبما لم يستطعه أرباب العقول الكبيرة.

ونحن الخاسرون من كل وجه، لا أستثنى أحداً من الخسارة، حتى ذاك

الصامت العاجز، فقد خسر أيما خسارة، لأنه بطريقة أو بأخرى مشارك فى الجريمة..

حتى العابد والشيخ الذين لم يبرحوا عاكفين فى المساجد، الله غنى عن عبادتكم ما استغنيتم عن رحمة قلوبكم ورهافة إحساسكم ورقة مشاعركم...

المفارقة بين الإثنين فى صالح الطفل من كل وجه، ليصبح له وحده حق الشكاية وتوجيه الإتهام، ويصبح لله وحده حق الفصل والقضاء، ونحن أمام المتهم صاحب القضية، وأمام القاضى متهمين، أو على الأقل شهود زور، فكيف نخلص من هذا الاتهام، وكيف نخرج من تلك القضية لا لنا ولا علينا، الله وحده أعلم، ولكنى لا أظن الطفل رحيماً كما لم يرحمه أحد، ولا أظنه رفيقاً بنا كما لم يرفق به أحد، يبقى الأمل كله فى الله، فلا أمل سواه، وكان ربك لطيفاً خبيراً.

يبقى التساؤل قائماً، أليست كل هذه الدعائم تصلح لأن تكون أسساً لنهضة عربية ووحدة قومية تتدارك على أساسها المصالح ونتشارك فيها الخيرات ونتقاسم فيها الهموم والأوجاع؟!

ألسنا جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟!

أليست قضايانا مسئولة من أعناقنا وحدنا أمام الله؟! وألسنا نحن المتهمون أمام الله وأمام التاريخ وأمام أبنائنا وأحفادنا عن ضياع أمتنا العربية والإسلامية بهذا الشكل المخيف؟!

التاريخ لن يرحم أحد يا سادة!! كما أن أبنائنا وأحفادنا لن يرحموا أحد إذا ما آلت إليهم الأوضاع على ما هى عليه الآن!!

من هنا أقف مع النشار فى خندق واحد، وأقف مع كل ضمير حى يريد الخير الحقيقى لهذه الأمة لتنهض نهضة قوية تكسب بها احترام العالم وتقوم على إثرها الكرامة العربية حرة أبية، ويُصنع على أثرها القرار العربى الذى يقف الناس لله إجلالا واحتراماً.

قد يتساءل البعض، نعم، الدوافع إلى الوحدة والنهضة كثيرة، وأكثر من الحصر، وما ذكرته هنا لا يتجاوز ربع تلك الدوافع، ولكن المعوقات أكثر، فهل من سبيل إلى التغلب عليها؟!

وهذا سؤال منطقى مائة بالمائة، فالسؤال لماذا الوحدة وصناعة النهضة كشف أمامنا تطفيفاً غير طبيعى لموازين القوى الدولية، وكشف أمامنا صورة العدالة العرجاء، وكشف أمامنا سوءات القيم التى يتمسك بها الغرب والأمريكان كما كشف عن حقيقة مزاعمهم وراء هذه القيم البالية التى طالما يصدرونها للجميع لتكون ستاراً تختفى ورائه جرائمهم البشعة.. كل هذا حق، وكل هذا صواب!!

لكن، تُرى أتكون العوائق لصناعة تلك النهضة وهذه الوحدة مجرد عثرة فى سبيل صناعتهما!!

إذن سنظل ننتقل من أزمة إلى أزمة منتظرين الفرج من السماء، وهذا ليس أبداً برأى للعقلاء، ليس حلاً يقبله المنصفون والمهمومون بهموم هذا الوطن المؤرقون بقضاياه..... قد يكون هذا سبيل الضعفاء، ومسلك الأغبياء، ومقصد الجبناء، ولكن الأمة العربية غنية برجالها القادرون على صناعة تلك

النهضة، والتغلب على كل معوقاتها، فما هى تلك المعوقات أولاً كما ارتآها مصطفى النشار؟ ثم تكون الإجابة المنطقية بعدها فى كيفية التغلب عليها.

ثانياً: المعوقات

يذهب النشار إلى أن صناعة نهضة عربية ليست بالحلم بعيد المنال، ولكن تلك الرغبة مرهونة بتوافر الإرادة القوية والعزيمة الصلبة للتغلب على أربعة معوقات رئيسة، حيث سيادة ثقافة التخلف، والأمية، وغياب العدالة الاجتماعية وكثرة الأقوال وقلة الأفعال.

هذه هى أهم العوائق التى يراها النشار، و إن كنت أراه متفائلاً إلى حد كبير، لأنى أرى العوائق أكثر من هذا بكثير، ولكنه يجمل ما رأيته كثيراً فى هذا القليل، ثم يرسم لنا آليات صناعة تلك النهضة فى الفصل الأخير من هذا الكتاب، بعد التغلب على تلك المعوقات التى تعرض لها فيما يلى:

1- سيادة ثقافة التخلف:

يُعرف النشار التخلف بقوله: «التخلف فى اعتقادى هو الجمود والتجمد عند نقطة معينة، وعدم القابلية للتطور أو التجدد، ومن ثمّ فإن الفرد أو المجتمع المتخلف هو الفرد أو المجتمع الذى يؤمن بأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن الوضع الذى هو عليه هو أفضل الأوضاع، وأن الثبات والحفاظ على ما هو كائن هو الهدف المنشود»[1].

وهذا التعريف يحمل فى ذاته توصيفاً للأزمة أكثر مما هو تعريف،

(1) د. مصطفى النشار، فلسفة الثقافة، ص98.

ولكنه توصيف موجز للهموم التى يمر بها مجتمعنا العربى، للثقافة الضحلة السائدة، للفكر العقيم المحيط على اعتقاداتنا يزيده النشار إيضاحاً بقوله: «إن ثقافة التخلف يتسم الناس فى ظلها بتغليب الدوافع الأنانية على الدوافع الموضوعية، وتتغلب لديهم تحقيق المصالح الشخصية على مصلحة المجموع، فكل فرد رغم أنه ينتمى فى الأساس إلى ثقافة القطيع إلا أنه ينفصل عنهم فى مجال التصرفات الشخصية حيث ينغلق على ذاته محاولاً الحصول على أعلى درجات الإستمتاع بمختلف أنواع المتع واللذات الحسية بعيداً عن أعين الأخرين وفى غفلة منهم»[1].

ولعل السبب فى شيوع تلك الثقافة الحسية التقدم التكنولوجى الهائل الذى أساء أبناؤنا استخدامه وفهموه على أنه الانفتاح بلا رقيب، فسادت الثقافة الحسية واللذية بعيداً عن الثقافة العلمية، وهذا من أشد أوجاع مجتمعنا العربى فيما يقول النشار: «غياب الثقافة العلمية وشيوع ثقافة التخلف بكل قيمها السلبية، فأفراده فى معظمهم يعيشون صباح - مساء ثقافة «الأنامالية» واللامبالاة، الوصولية، والمحسوبية، الرشاوى والفساد المالى والإدارى بكل صوره، وهذه القيم السلبية هى نتيجة طبيعية لمجتمع غاب عن أفراده عناصر الثقافة العملية التى هى أساس ما أسميه دائماً «ثقافة التقدم» تلك الثقافة التى تُكسب أفرادها الموضوعية فى القول والفعل، تحكيم العقل فى كل ما يصدر عنهم من أحكام ومواقف، الشفافية فى الإعلان عن الرأى وفى كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، التخطيط العلمى الجيد لكل جوانب الحياة عملية كانت أو علمية، الإدارة بالأهداف التى تعنى تفعيل التخطيط العلمى فى مجال الإدارة، فلا يدير أحدهم مصنعاً أو حتى مؤسسة علمية أو

(1) نفس المصدر، ص104.

تربوية أو غير هذه وتلك إلا فى ضوء خطة عمل تحدد أهدافاً بعيدة وقريبة المدى، وتحدد آليات دقيقة لتحقيق هذه الأهداف بصورة ترضى عنها معايير الأداء الجيد والمنتج الذى تتوافر به كل مواصفات الجودة والإتقان»[1].

ويؤيد عالم الاجتماع الدكتور أحمد حجازى ما أكده النشار، إذ يرى أن أهم مظاهر أزمة التخلف العربى ما يلى:

- هيمنة بيروقراطية مركزية على الاقتصاد والمجتمع بشكل يمنع أو يُحد من إمكانيات التنمية الحقيقية.
- استئثار فئات قليلة من المجتمع بمصادر القوة الاقتصادية والسياسية، وهذه الفئات لا تعمل إلا فى المجالات غير الإنتاجية لأنها تمثل بالنسبة لها المصدر الحقيقى للتراكم الاستثمارى المظهرى.
- ضيق القاعدة الإنتاجية وفقدان مجالات الاستثمار الحقيقية حيث تتركز هذه المجالات فى القطاعات الهامشية والسلع الاستهلاكية غير الضرورية.
- تصدير رؤوس الأموال العربية إلى الأسواق الأوروبية.
- زيادة الهوة بين الأغنياء والفقراء فى داخل بعض الدول، وكذا بين الدول النفطية وغيرها.
- ظهور قوى اجتماعية جديدة تابعة للمركز الرأسمالى العالمى تعمل على تسهيل مهمة التغلغل الرأسمالى فى الدول العربية[2].

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص166 - 167.

(2) د. أحمد مجدى حجازى، علم اجتماع الأزمة، رؤية نقدية للنظرية السوسيولجية، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1992م، ص174 - 175.

ومجمل هذه المظاهر تترسخ بقوة فى الثقافة العربية، لذا سنجد أن أحد أهم، بل وأول آليات صناعة النهضة عند النشار سيبدأ من الحل الثقافى كما سنرى فى الفصل القادم، - إن شاء الله - لأن علاج تلك الأزمات والمظاهر السيئة علاج ثقافى فكرى تربوى فى المقام الأول.

أضف إلى كل هذه السلبيات التى قد تودى بحياة أمة بأسرها، سيادة اللامبالاة وعدم الإحساس بقيمة الوقت، ففى الوقت الذى صنع فيه الغرب قطاراً يبدأ رحلاته وينهيها بالثانية وليس بالدقيقة أو بالساعة، لا زال العرب يمرحون ويلهون ويلعبون بالساعات والساعات دون أدنى إحساس بالوقت، ودون أدنى شعور بالمسئولية تجاه هذا الهدر المتعمد لأعظم ثروة منحنا الله إياها، يكفى أن الله أقسم بهذا الوقت أكثر من ثمانى مرات ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 1 - 2] ومعلوم أن الضحى هو وقت الضحى، والليل ومقصوده وقت دخول الليل، بل إن المجرمين يوم القيامة يعللون اجرامهم بقصر الوقت الذى مكثوه فى الدنيا ٢ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم: 55]، ثم يؤكد النبى الكريم ﷺ على أهمية الوقت بقوله: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**»[1].

والناحية العقلية لا تقل تجريماً لضياع الوقت وإهداره عن الناحية الشرعية، فالأمم إنما تتقدم بالعمل الجاد واستغلال كل لحظة من لحظات حياتها فى العمل المثمر الذى تكفى به احتياجاتها[2].

كذلك من دلائل تخلفنا اهمال اللغة العربية التى هى مناط القومية، فى

(1) رواه البخارى (1251) ومسلم (752).
(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص179.

الدرس والبحث العلمى ظناً بأن التوسع فى تدريس العلوم باللغات الأجنبية يزيد من فرص العلم لدينا، مع أن الحقيقة عكس ذلك تماماً، إذ لا يمكن الإبداع بغير اللغة القومية فيما يقول النشار: «إن عجز معظم أبناء الجيل الحالى من علمائنا عن نقل ما تخصصوا فيه من علوم إلى لغتهم القومية هو تقصير ينبغى أن يعترفوا به، وأن يساعدوا مجتمعهم على تربية جيل جديد يتقن اللغتين، لغتهم وأى لغة أخرى، بحيث يمكن لأبناء هذا الجيل الجديد أن يدرسوا و يُرّسوا هذه العلوم باللغة العربية حتى يسُهل على هؤلاء العلماء الجدد أن يستوعبوا هذه العلوم استيعاباً كاملاً، إذ إن الدراسات التربوية العلمية الحديثة أثبتت أن الإنسان لا يمكن أن يبدع بشكل كامل إلا فى إطار لغته الأصلية «القومية»، وأن الإبداع العلمى لابد أن يتوافر له ما يسمى بالبيئة العلمية المشجعة أو المواتية»[1].

إن اللغة العربية التى هى لغة القرآن بالأساس ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]، جديرة بتمجيد أبنائها، فإذا كان الغرب يقبلون على تعلمها باعتبارها اللغة العالمية التى ستحتل السيادة عقب انهيار الحضار الغربية والإمبريالية الأمريكية، فإن الأولى بذلك هم أبناؤها، وخاصة العلماء والنخبة الذين هم مناط المسئولية الكاملة عنها فيما يقول النشار: «إن قراءة العلوم باللغة القومية هو الطريق الوحيد لأن يصبح أبناء هذه الأمة علماء بحق وقادرين بحق على نشر علومهم وثقافتهم العلمية بين مواطنيهم وتلاميذهم، ولا يمكن أن يتفاعل المجتمع الجاهل بأبسط مبادئ المعرفة العلمية مع التقدم العلمى ولا أن يشجعه، ففاقد الشىء لا يعطيه، إن

(1) المصدر السابق، ص179.

الجيـل الحالى من علماء مصر وغيرهم من العلماء فى كافة البلدان العربية هم مسـئولون أمام اللـه وأمام أوطانهم إن لم يعترفوا بأنهـم إنما يقصرون حقاً فى حـق أمتهم طالما لم يسـعوا إلى نقل ما تعلموه من علـوم ونظريات علمية إلى تلاميذهم ومواطنيهم باللغة العربية»[1].

ويزيد النشـار من لهجة النداء بالاهتـمام باللغة العربية لدرجة تعريب العلوم فيقول «إن قضيـة ترجمة العلوم إلى اللغة العربية قضية قومية خطيرة ينبغـى الالتفات إليها بل أعتبرها - والحديث للنشـار - قضيـة القضايا إذا ما كان موضوع الحديث عن التقدم العلمى، إذ إننى أعتقد ولازلت وسأظل أصر على أنه لا مجال للحديث عن التقدم العلمى طالما أننا بعيدون عن نقل العلوم إلى لغتنـا القومية، بعيـدون عن تدريس العلوم باللغـة العربية، بعيدون عن نشر القافة العلمية باللغة العربية، بعيدون عن الاعتزاز بلغتنا القومية كلغة علمية عالمية»[2].

ولا يفوتنى أن أسجل اعتراض مع محمد عابد الجابرى على قضية التعريب التـى يدعو إليها النشـار، لأنها فضلاً عـن إفراغها العلم مـن مضمونه كون معظم المصطلحـات العلمية وجدت باللغات الأجنبيـة خاصة الإنجليزية، وأن هذا الاعتراض قد يكون مردوداً عليه بما كتبه الأطباء والفلاسفة العرب والمسلمين من قبل وتم تدريسـه فى جامعات أوروبا باللغة العربية[3] إلا أن الاعتراض الأقـوى على قضية التعريب أنه سـيؤدى إلى ضعف تعلم اللغات

(1) المصدر السابق، ص187

(2) المصدر نفسه، ص188.

(3) د. محمد عابد الجابرى، ثورة العقل العربى، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1992م، ص134.

الأجنبيـة فى بلداننا العربية، وهو ما سـيؤدى إلى مأسـاة كـبرى، إذ لابد من تعليـم تلك اللغات الأجنبية كونها أحد آليات القوة والعلم ومواكبة التطور العلمى العالمى بلغته التى تطور بها.

نعـم، اللغة العربية فى حاجة إلى الاهتـمام والتطوير، لكن ليس إلى حدّ تعريب العلوم، ولكن تطويرها يبدأ من الاهتمام بها وبتدريسـها وبتقديمها على غيرها من اللغات الأخرى عربياً، مع الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية الأخـرى لمواكبـة التطـور عالمياً، هـذا هو المنـاص الوحيد والمـلاذ الآمن لتصحيح مسار اللغة العربية.

أيضاً من دلائل تخلفنا عربياً ما يسـميه النشـار: «إهدار طاقات الشباب وعرقلـة حركـة الأجيـال» حيث يؤكد النشـار (وهـو ما سـنراه فى الفصل الأخير من الدراسة) أن الشـباب هم صانعوا أى نهضة ومبدعوها، وبدونهم فلا نهضة ولا تقدم، وأن الاسـتبداد السـياسى وانتشـار الشـللية والواسـطة والمحسـوبية أهدر طاقات الشـباب وأضاع الفرص تلو الفرص على الأمة فى صناعة نهضتها، يقول النشـار: «وبعيداً عن النتائج الاجتماعية والسياسـية والاقتصادية للبطالة التى يعانى منها عدة أجيال من شـبابنا المتعلم، الراشـد، الواعـى، تلك النتائج التى عادت بكل ما هو مؤسـف وخـارج على مجتمعنا ورصدهـا علماء الاجتماع وعلماء النفـس، فإن الإحباط الذى يصيب هؤلاء الشـباب نتيجة إهمالهم من مجتمعهم وعدم اسـتفادته من قدراتهم الجسـيمة والعلمية، هو مرض قاتل لهؤلاء الشباب.

فإذا لم يتحولوا بطاقاتهم إلى عوامل هدم و إفساد وتخريب فى المجتمع وهذا مـا نعانى منه فى مجتمعنا فى معظم الأحيان، فإنهم سـيتجهون حتماً إلى الانتحار

بشـقيه المادى والمعنوى، وفى كل الأحوال فإن المجتمع هو الخاسر الأكبر من اهـدار هذه الطاقات المبدعة لهؤلاء الشـباب، إذ لا يصنع الحاضر الزاهى ولا المستقبل المشرق إلا هؤلاء الشباب، و إذا ما ظل الجيل الحالى الذى انتهى عمره الإبداعى الافتراض منذ زمن متحكماً فى مسيرة الحياة والتنمية فى المجتمع لكان معـنى ذلك بكل بسـاطة هو التوقف التام لحركة المجتمـع والانهيار اللامحدود لكل جوانب الحياة فيـه، وبالطبع فإن هذا الانهيار لا يحدث فجأة، بل يحدث خطوة خطوة، وشيئاً بعد شىء، ومجالاً بعد أخر، ونحن الآن وبعد ضياع الأمل الحقيقى فى الاستفادة من امكانيات وطاقات ثلاثة أجيال على الأقل من أجيالنا المبدعـة، نخطو ربما الخطوة قبل الأخيرة فى طريق الانهيار المفاجئ للمجتمع! ولن يكفى لوقف هذا الانهيار ترقيع بعض المواقع وتحديثها عبر قيادات شـابة هنـا وهناك بشـكل فوضوى غير منظـم ولا يعتمد على خطـة واضحة المعالم للاسـتفادة من هـذه الأجيـال المتوالية، فالأمر يجرى بشـكل عشـوائى يعتمد عـلى المصادفة البحتة فى بعـض الأحيان أو على الشـللية والارتباطات العائلية والواسطات والمحسوبيات والرشاوى فى معظم الأحيان»[1].

و يناشـد النشـار أنظمة الحكم العربية بلغة قوية نابضـة بالحياة والثورة معاً ناصحاً إياهم بالوعى بحركة التاريخ وصيرورة الحياة ودوران الأحداث فيقـول: «ينبغـى على هذا الجيـل السـلطوى المتحكم أن يدرك أنـه لن يظل فى تحكمـه فى مقـدرات المجتمع وتطـور حركته إلى النهايـة، لأن لكل جيل - مهـما تحكـم ومهما طالت مـدة تحكمه - نهاية محتومة، ولابـد أن يملك كل جيل الشـجاعة الكافية للسـماح للحراك الاجتماعى والسياسى والعلمى أن

(1) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص177.

يتم بشكل طبيعى، وهذه الشجاعة هى الإنجاز الحقيقى لأبناء هذا الجيل، فالشجاعة هى أن تسمح لغيرك أن يحل محلك وأنت مرحب به بدلاً من أن يزيحك رغم أنفك حسب حركة الحياة وصيرورة التاريخ!»[1].

ولعل صانعى القرار فى مصر قد قرئوا هذا الكتاب «الأورجانون العربى للمستقبل» فاتخذوا خطوات ايجابية نحو تمكين الشباب، نعم هى خطوات غير كافية، فما زال حاملوا المؤهلات العالمية يوضعون فى غير مواضعهم أو ربما ينتظرون طابور العمل على الرصيف، ولا زادت المؤسسات العلمية مكتظة بمشايخها دون الاستعانة بالشباب، ولكنها خطوات جريئة ولها احترامها، يكفى أنها فتحت الباب لأول مرة أمام الشباب.

يبقى التساؤل إذن، من المسئول عن شيوع ثقافة التخلف، والإجابة عليه فى حاجة ماسة إلى المصارحة والمكاشفة بقدر ما هى فى حاجة إلى الجرأة العلمية التى فاجئنا بها النشار بقوله: «إن النخبة هى المسئول الأول عن شيوع ثقافة التخلف لأنها لم تعمل منذ فترة على الأخذ بأسباب وقيم ثقافة التقدم، وتناست فى غمرة البحث عن تحقيق مصالحها الآنية، تناست أن المثقف والعالم والمفكر والكاتب إنما هو ضمير الأمة وهو صاحب رسالة تنويرية فى تثقيف مواطنيه وحثهم على التمسك بكل قيم التقدم العلمى، ومن نافلة القول التأكيد على ألا تقدم علمى ولا ثقافة علمية ولا بيئة علمية مواتية لصنع الإبداع العلمى والمشاركة فى مسيرة العلم المعاصر، بدون انتشار قيم الثقافة العلمية ومفرداتها ونظرياتها بين أفراد المجتمع بلغة هؤلاء الأفراد»[2].

(1) المصدر السابق ص177.

(2) المصدر السابق، ص168.

يمكننا القول بأن المنظومة مشتركة بين الجميع، سيادة ثقافة تخلف، يُسأل عنها أصحاب الثقافة وأرباب الفكر وأهل الرأى، ويتأثر الجميع فى النهاية بهذا العطب الذى يلحق بسفينة الوطن العربى الكبير، الذى وجه إليه النقد الكثير من عدول المفكرين الغربيين، نقداً اراه بناءاً، حيث الرفض القاطع لإنتشار ثقافة التخلف تلك التى تغزو أركان وطننا العربى وتملأه عن أخره، حيث لا عمل فى ظل تخلف لا مفر منه إلا بالعمل، وحيث تحكم بعض المنتسبين للدين ومحاولتهم الإمساك بالسلطة باسم الدين وباسم الخلافة، فى حين أن أوروبا أقامت خلافة هى جوهر النظام السياسى فى الإسلام، بينما ظل هؤلاء المتفيهقون يرمون أوروبا بالكفر والفسق، وتخلفوا هم عن الركب، تلكم كانت شهادة مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى العالم 1900م وهو مفكر سياسى له وزنه، وفى حديث أجراه معه الأستاذ بشارة تقلا رئيس تحرير الأهرام آنذاك جاء فيه[1]: «أنتم تعرفون من تاريخ أوروبا أن أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعاً إلا يوم تقيدت السلطة المدنية، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة، وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطنى الفرنسيين، ولم أستشهد بكيمون وهو يونانى الجنس، إلا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها، فإن كثيرين من الكُتّاب الألمانيين والفرنسيين والإنجليز وغيرهم حذوا حذوه، وقالوا قوله، وخلاصة كتاباتهم أن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد، لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة، وهى أنه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى، وإن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوروبا علماً ومدنية

(1) رأيت نقل الحديث كاملًا لعموم الفائدة.

نجحت، مع أن الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة، و إنما ذكرت من هؤلاء الكُتّاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه، لاعتقادى أن الإسلام لا يحول دون الإصلاح والمدنية، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس، فذكرتها مثالاً أؤيد به أقوالى، وسياستى هذه هى روح كتاباتى السابقة، و إنها ستكون روح اللاحقة.

و إنى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ، كاتب حر الضمير، لا شأن لغيره فى معتقده الخاص، ولكننى أحترم أدبيات كل دين ومعتقده، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرها ولكن الماديات غير الأدبيات والأولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيا به، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت، إذ لا حياة بلا مادة، و إلهكم أنتم أيها الشرقيون إله أوروبا و إله أمريكا، إذ أن إله الجميع واحد ـ ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافاً على الأوربى منه على الأمريكى، فالشرقى، بل إن الشرقيين عموماً أكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين، وقد علمنا أن أوروبا فاقت شرقكم بمراحل، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا، وكثيراً ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها، ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأمريكى منه إلى الأوروبى أو الشرقى، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حى، هذا يشتغل مجتهداً، وكلما زادت أرباحه زاد نشاطاً و إقداماً، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلماً، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى، وضيق أوربا بأهلها دفعها إلى الاستعمار فى كل صوب، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوباً لا حراك بها، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها.

وهنا يسأله رئيس الأهرام قائلاً: إنى أعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولاسيما فى الحكومات الإسلامية[1]، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا سوى خصوماً للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفاً ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم!

قال هانوتو: انا لاأسأل الشرق ذلك فهو حرفيما يفعل، ولكن أعتقد أن أوربا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطتين، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما أنى أعتقد أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية، وأعتقد أيضاً أن صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يُجرى إصلاحات لا يقدر غيره عليها، ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانجلترا من التهام الهند، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها إلى حدود أفغانستان، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس، والمملكتان إسلاميتان، فإذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية، وإذا كان الإسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم؟ فإذا قلتم إن أوربا تحول دون الإصلاحات، إذن فلم تأخرتم واليابان تقدمت؟ وهى لم تشتغل إلا ربع قرن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى.

(1) يقصد السؤال عما عناه مسيو هانوتو من فصل السلطة المدنية عن السلطة السياسية وأوردته لمعانى عظيمة أردت توضيحها

و إذا قال لكم أولئك الكتاب إنا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون إصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم؟ أيظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين.

وأنا اعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها، ولكن قد حان لكم ألا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ما دام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين.

بشارة تقلا: وما شأنكم والشرق وأممه، فكلاهما راض عن حاله ومفضل لها على كل سلامة أجنبية أو أوربية، والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى.

فقال الوزير بعبارة صريحة: إن هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حال أوربا هذا الزمان، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها، قد اندفعت إلى الاستعمار، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها[1] واعلم أن فرنسا مضطرة، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى

(1) وهذه من المفارقات الحقيقية التى يعترف بها هذا الرجل صراحة، وهو ما أكده حديثاً مصطفى النشار وأوردته فى هذا الكتاب تحت اسم (وهو الديموقراطية الغربية) وها هو الرجل يصدق ما قاله النشار اليوم، فالغرب يظهر المبادئ فى العلن ويدوسها فى السر، فيكون ما يبطن أخطر بكثير مما يظهر، وما يظهره ليس سوى ستاراً يخفى ورائه أطماعه.

والتجارى إلى الاقتداء بالدول المذكورة و إنى أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى نكاية فى الانجليزى و ينتصرون للفرنسى على الألمانى، ولكن أما آن لهم أن يعلموا أن الأوروبيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبم من السهل اتفاقهم على الشرقيين؟ لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم، وأنت تعلم أن ألمانيا أكثر الدول فى أوربا استقراراً وأبعدها عن الاستعمار، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين، وهى التى سألت امتياز إنشاء (سكة حديد) بغداد، مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى إلا إلى مصلحتها السياسية».

ثم يردف الوزير نقده للشرق بقوله: «دعنى أتساهل معكم وأقول بأن بعض الأوربيين يريد لكم سوءاً، و إن هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين، ولكن إذا كان قد استحال على دول الشرق وهى فى أوج مجدها وشامخ عزها، أن تتحد وتوحد كلمتها، فهل يسهل ذلك عليها اليوم؟[1] و إذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداءاً لمصلحة الإسلام، لأن أوربا مسيحية وهو زعم باطل، فهل كل ما ينادون به من وجوب الاتحاد الإسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا، ويمنعها عن انقاذ ما يتهمها به المسلمون؟ وكيف يمكن ذلك الإتحاد المزعوم؟ اترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة فى غيرهما؟

(1) سؤال أكثر واقعية، فقد تهيأت الظروف واتحدت الغايات أكثر من مرة إزاء مواجهة الأخطار الغربية والهجمات البربرية على الشرق، فلماذا لم يتحد العرب وقتها و يستمر اتحادهم درءاً لأى عداوات قادمة؟

أم تقبله فرنسا مع أملاكها الإفريقية الواسعة؟

أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم؟

أم تعضده روسيا؟

أليس ذلك خرقاً فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة؟

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على القليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم، وأن يعملوا فى الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب، بأن يتخذوا إقدام أوروبا واجتهاد أبنائها مثالاً يسيرون عليه، وأنموذجاً يعملون بموجبه أى كما فعل اليابانيون فى السنين الأخيرة، وأنت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من أوروبا، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوروبى وذمه والمباهاة بمجد الآباء[1] ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى لأنه عنصر غريب، لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا، ولكن بسلاح أوربا، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والإقدام، ولهذا فازت فى مطالبها، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولاً، فالسياسية ثانياً، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية

(1) وهو عادة ما يفعله الشرق، وهو ما وجه إليه النشار النقد أكثر من مرة حيث نجيد الكلام ولا نقدم على الفعل وتلك المأساة الكبرى، فالغرب لا يعرف الكلام بقدر ما يعرف العمل، بل ولا بأدنى قدر.

سـواء كان فى أوربـا أو فى الشرقيـة الأقصى والأقرب لكان دون شـك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوروبية[1].

وتقـول لى إن النهضـة العلميـة بدأت فى مـصر، وأن بعض الأفراد أنشـأوا المدارس، وأن السلطان قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية وأن أصحاب النشـأة الجديـدة أدركوا قصـور الحكام، وتأخر البـلاد، فقاموا يجهـرون بوجـوب الإصلاح وتعميـم العدالـة، والأمل وطيد بالنجـاح، ولكن الطفـرة محال، ويجب أن تعلموا أن العبرة ليسـت فقط فى إقامة المدرسـة بل فى وضع (البرامج) المدرسـية، كـما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر إذا لم يُمزج بالتهذيـب، فـإنى لا أجهل أن كثيرين مـن أبناء الشرق درسـوا فى أوروبا، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسـوا فى أوروبا أيضاً، ولكننا رأينا فى اليابـان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم، ولعلنا نراها يوماً لأنى أعتقد أن رجال النشـأة الجديدة ينجحون نجاحاً كامـلاً إذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية، لأن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحداً، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتسـتانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والأرثودكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسا»[2].

(1) وهذه خير شهادة على أن قوة العرب والمسلمين إذا ما اتحدت كانت أعظم من أوربا بمراحل، لأن وحدة أوربا تقوم على المصلحة، أما الوحدة العربية والإسلامية فتقوم على العقيدة واللسان والهوية أولاً ثم المصالح فى المقام الأخير.

(2) هذا الحديث نقلته بتصرف من كتاب «الإسلام دين العلم والمدنية» للشيخ محمد عبده، دراسة د. عاطف العراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة2009، ص79 وما بعدها.

لعـل هذا الحديث قديم، فهو تاريخياً يرجـع إلى قرن من الزمان أو يزيد قليلاً، ولكن جرحه عميق، لأن هذا الرجل وضع يده على كل الجراح العربية التـى تمثل بحـق ثقافة التخلـف، هو تكلم عنهـا إجمالاً، ومصطفى النشـار فصلها تفصيلاً مع إضافة بعض السلبيات السائدة فى مجتمعاتنا العربية، لكنه حديث مكاشـفة لا شـك، حديث الصراحة والوضـوح والمواجهة التى لا مواربـة فيها ولا تجمل، وهكذا تبنى الأمم، تبنى بالمصارحة وكشـف العيوب والأخطـاء والبحـث عـن السـلبيات، ولا تبنى أبـداً بدفن الـرأس فى الرمال كالنعام، تبنى بتوجيه النشار النقد إلى السياسة والساسة عربياً، ولا تبنى أبداً بالنفاق والرياء ومداهنة صانعى القرار حتى يغرق الوطن ومن فيه.

لقـد وضع الرجل أيدينا على سـبع حقائق تكاد تكون مسـلمات لا تقبل الجدل.

أ- اللغة السائدة فى العالم هى لغة الأقوياء لا الضعفاء، والعالم لا يعترف بغـير الأقوياء، لا يعترف بالمبادئ، ولا يعـترف بالقيم، ولا يوجد شىء اسمه انسانية، فقط توجد مصلحة، وفقط توجد قوة.

ب- يسـأل الرجل أسـئلة واقعية، وعلى العرب أن يجيبـوا، أولاً لماذا تقدم الغـرب وتأخرنا نحن، وثانياً لماذا تقدمـت اليابان وتخلفنا، وثالثاً لماذا لم تقم وحدة عربية وقد واتتها الظروف غير مرة؟

ج- العمل وحده هو الذى يصنع التقدم وليس العجز والكسل.

د- وجـه مُـر النقـد إلى العلـماء والنخبـة الذين يـراءون الحـكام وينا فقونهم.

هـ- أرسى حقيقة أن أوروبا تجمعها المصالح المشتركة وهم أمة واحدة على من سواهم، أمة تقوم على المصلحة لا على المبدأ.

و- أكد على أن الدول الأوروبية ستعارض صناعة أى نهضة عربية وستقف حجر عثرة فى وجه أى وحدة عربية منشودة.

ز- لا بديل عن التسامح الدينى و إقصاء الخلافات المذهبية والطائفية لصناعة أى نهضة حقيقية، فالدين لا يمنع النهضة و إلا لما نهضت أوروبا ذات الأديان المتعددة والمذاهب اللامتناهية، ولكنها تقدمت عندما قامت على المصلحة المشتركة لا العقيدة المشتركة، ولا المذهب المشترك، فالرجل يؤكد بكل صراحة أن فرنسا بها المسيحى واليهودى والمسلم، وعلى مستوى الدين الواحد، فيها المسيحى الأرثوذكسى والبروتستاتتى (الطائفية) ولكنها ما أقامت وزناً لهذه الاختلافات العقائدية أو المذهبية بل هى لكل الفرنسيين و بهم جميعاً، و بما يعنى تقديم فرنسا لفكرة المصلحة القومية على الطائفية والمذهبية.

درس فى الصميم لعقلاء العرب .. حقاً ـ وما يعقله إلا العالمون- إن سيادة ثقافة التخلف نذير خطر، لأن سلبياتها كثيرة وكبيرة و فى حاجة إلى مشقة كبرى للتغلب عليها، إذ أن عملية التحول من ثقافة التخلف إلى ثقافة التقدم تستلزم عدة مطالب أجملها النشار فيما يلى:

- ❐ توافر الإرادة المجتمعية والسياسية لإجراء التحول.
- ❐ تعديل فلسفة التعليم لتصبح فلسفة للإبداع لا للتقليد والتبعية، وهذا يستلزم تغيير منظومة التعليم بالكامل.

- ❐ القضاء التام على الأمية.
- ❐ الدعم اللامحدود للبحث العلمى، حيث يسخر النشار من نسبة الإنفاق العربى على البحث العلمى والتى لا تتجاوز 3 %.
- ❐ توافر الإدارة القادرة على قيادة العمل بحرفية وكفاءة.
- ❐ الثقة فى قدراتنا الذاتية على الإنجاز والابتكار.
- ❐ تجديد كافة أشكال الخطاب، سواء الثقافى أو الدينى أو السياسى أو الإعلامى.
- ❐ التحول من القول إلى الفعل أو من الخطاب اللفظى إلى حضارة الأداء[1]...

تلك هى العلة، وتلكم هى آليات الخروج منها فهل من مجيب؟

2- الأمية:

لعل أخطر عائق لصناعة نهضة عربية هو الأمية التى تفشت فى أرجاء وطننا العربى بصورة مخيفة، إذ تشير التقارير غير الرسمية إلى أن نسبة الأمية عربياً تتعدى حاجز الثلاثون بالمائة، وهذا نذير خطر لأن الأمية قائد للجهل بكل شىء، والجهل يشكل الضلع الأهم والأخطر فى مثلث الجهل والفقر والمرض باعتباره علة الإثنين الآخرين[2]، يقول النشار: «إن العائق الأهم والأعظم الذى يعوق تقدم أية أمة إنما هو الجهل الذى يرزخ تحته أبناؤها،

(1) د. مصطفى النشار، ثقافة التقدم وتحديث مصر، ص60 وما بعدها
(2) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص94.

إذ أن أمـة لم تنجح فى تعليـم أبنائها وتأهليهم التأهيل المناسـب لا مكان لها تحت شـمس الحضارة من قريب أو من بعيد!! فالفرق بين الإنسان والحيوان بداية هو قدرة الأول على التعلم فإن لم يفعل ظل فى المرتبة الحيوانية سـلوكاً وأسـلوب حياة، وفقـد المجتمع الذى ينتمى إليه إنسـاناً كامـل الأهلية كان يمكن أن يكون إضافة حقيقية للتنمية فى وطنه وربما للبشرية عموماً»[1].

إن الأميـة عائق ليس للتقـدم أو صناعة النهضة وحسـب، ولكنها عائق للوجود الإنسانى السوى على الأرض، فأول آية من القرآن الكريم نزلت على النبـى الكريم ﷺ كانت ﴿اقْرَأْ﴾، لتكون بمثابـة صناعة أمة اقرأ التى لم تقرأ، وليضع لنا سبحانه أهم آلية لأمة إسلامية متقدمة بحق، أمة ترتكز على العلم وتأخذ بأسبابه وتنهض بمسبباته.

إن ظاهـرة الأمية بتوصيف د. إبراهيم شـحاته تُعد: «عاراً قومياً ليس لنا عذر فى استمراره، وخسارة محضة فى كل المجالات»[2].

فمـن الناحيـة الأولى هـى عار لأننـا أمة القـرآن وأمة الحضـارة وهما لا يسـتقيمان أبـداً مع الأميـة، ومن الناحيـة الثانية أنها تمثل خسـارة فادحة فى شـتى المجالات لأنها تصنع الجهل صنعاً، وتفشى الجهل يؤدى إلى كوارث من المشـكلات التى لا حـدّ لها ولا حصر، فأكثر القضايـا المنظورة أمام القضاء لمواطنـين يرتعون فى الجهل، وأكثر المعتدين عـلى القانون هم هؤلاء الجهلاء أيضـاً وفق الإحصائيات الرسـمية، كما أنهـم الفئة الأكثر عُرضـة لعلميات غسيل المخ التى تفرز متشددين وقتلة باسم الدين.

(1) د. مصطفى النشار، من الثورة إلى النهضة، ص92

(2) د. إبراهيم شحاته، وصيتى لبلادى، ص130.

كل هـذه المشـكلات وليدة الأمية، و ينبغى مواجهة السـبب لا النتيجة، حتـى تقطع الطريق أمام كافة النتائج المتولدة عن ذاك السـبب، ولكم كان الدكتـور فتحـى سرورصادقـاً فى تعجبـه: «إنه لمـن العجيب حقـاً أن تثور المشـاعر وتهتـز أركان البـلاد وتكثف الجهود إذا احتُل شـبر مـن أراضيها، وتركـن حتى الآن إلى الدعة والهدوء وعقـول الغالبية الكبرى من المواطنين تحتلها حجافل الجهل والأمية»[1] .

حقـاً ما أصدق هـذا القول، لأن الأمية أخطر من الاحتلال العسـكرى، وما استطاع الغرب يوماً أن يحتل الشرق عسكرياً إلا باستغلال جهل القاعدة العريضـة فى بلاد الـشرق، واللعب على وتر سـوء التعليـم، كى يضمن إنتاج أجيال جاهلة و إن كانت فى ظاهرها متعلمة وتحمل الشهادات.

و إن كنت أعتقد أن الأمية التى تعنى العجز عن القراءة والكتابة ليست هى كل المشكلة، ولكن الأمية المتفشية بين المتعلمين ذاتهم هى أخطر ما فى الأمر، فواقعنا التعليمى كارثى، وشواهده تنذر بالخطر، فطالب الدبلوم الفنى يتخرج من مدرسـته دون أن يجيد القراءة والكتابة ولو ربع إجادة، وطالب الثانوية العامة يعتمد على النجاح فى الدور الثانى، بل وطالب الجامعة رأسـه خاوية إلا من الفيلم والمسلسل والبنت التى يحبها ولون التيشيرت وغيرها من أمور تافهة أقل من مستوى تفكير ابن الثمانى سنوات.

واقع مرير وجه إليه النشـار مر النقد، إذ لا بناء لأمة من الأمم فى وجود أى نسـبة من الأمية، ولا تقدم ولا نهضـة بدون ركوب مركب العلم و إعطاء

(1) د. أحمد فتحى سرور، استراتيجية التعليم فى مصر، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص113.

العلـم والعلماء والبحـث العلمى الأولويـة على كل شىء، عندهـا، وعندها فقط، نستطيع أن نقول أننا بحق أمة تسير على طريق النهضة.

3- غياب العدالة الاجتماعية:

من أكبر عوائق صناعة النهضة عربياً غياب العدالة الاجتماعية بمظاهرها المختلفـة، حيث أن الإحسـاس بالقهر والظلم وانعدام الأمـن والأمان عادةً ما يؤدى إلى سـيادة مظاهر الأنانية والتعدى عـلى الآخرين والتمرد على كل اللوائح والقوانين وسـيادة روح اللامبالاة والسـلبية والعنـف لدى الأغلبية العظمى من الأفراد[1].

وترجع جذور العدالة فى مـصر إلى الحكيم المصرى إيبوور (ت 2300 ق.م) والـذى دعا إلى إصلاح الحياة السياسـية إبان انهيار النظام السـياسى القائـم على ثيوقراطية الفرعـون والكهنة وظهور الثورات الشـعبية التى تندد بالظلم وفساد الطبقة الحاكمة ودعا فى تعاليمه إلى ضرورة وضع قانون عام يحدد فيه حقوق الشعب وسمات الحاكم ووظيفته والدور الذى يجب أن تلعبـه الحكومة لتحقيق العدالة والمسـاواة بين أفراد الشـعب بمختلف طوائفـه وحماية المـوارد الاقتصادية والدفاع عن حدود البلاد واسـتتباب الأمـن فى الداخـل، كما أوضح الفـارق بين الثـورة التى تطالـب بالعدالة والمسـاواة وأدان فى تعاليمـه أول ثـورة فى التاريخ المعروفـة بثورة الجياع فى عهـد بيبى الثـانى، وأكد عـلى أن القوانين وحدها لا تحقـق العدالة، بل إيمان الشعب والحاكم معاً بقيمتها الأخلاقية وأثرها فى المجتمع، فالتواصل

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2004م، ص132.

والحب والاحترام بين الحاكم والمحكوم هو القاعدة الرئيسة لكل دساتير العالم[1].

أيضا تـدل آثار الحضارة المصرية القديمة بـكل وضوح على مدى اهتمام قدمـاء المصريـين بالعدالـة، فقد كانـت حضارة عـلى النقيض مـن حضارة الرومان، كانت تهتم كثـيراً بالعدالة بينما كان اهتمامها نادراً بالقانون، فلم يتركـوا تراثاً لمجموعة قوانين كما فعل الرومان، تقول أنا ما نسـيني ما نصه: «ومن خلال الآثار المتبقية للحضارة المصرية القديمة يمكن القول بأن الحياة المصريـة بالكامل تديرها ماعت، ففى مجتمع كهذا، لا يوجد ثمة خلاف بين العدالـة الإلهية والعدالة البشرية، فالإنسـان العادل فى الحياة الدنيا هو أيضا الإنسـان العادل فى الحياة الأخرى، ويكافئ بالحيـاة الوفيرة ورغد العيش فى الحيـاة الدنيا والآخرة، فمصر لكونها هبة النيـل تتميز برخاء مادى لم يقف حجر عثرة أمام اندفاعها نحو مجتمع مثالى تسوده العدالة»[2].

فكرة العدالة إذن راسخة فى وطننا العربى، وغيابها الآن أحد أكبر العوائق التى يدعو النشـار إلى التغلب عليها، وإقامـة اقتصاد عادل يقوم على الموارد الضرورية لا على الاحتكار والادخار، حتى لا تتحول إلى الرأسمالية الغاشمة التى لا مجال فيها لمعانى الإنسانية، يقول النشار: «علينا أن نحرص على تنمية مواردنا المستقلة وابداع الوسائل الكفيلة بصنع التقدم على الطريقة العربية الإسـلامية، وليس مهماً أن نمتلك الثروات الطائلة والأموال السائلة بل الأهم

(1) د. عصمت نصار، من جوه نبدأ، دار الهداية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2012م، ص118.

(2) أنا مانسيتى، ماعت، فلسفة العدالة فى مصر القديمة، ترجمة محمد رفعت عواد، تقديم د. على رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2009م، ص22.

أن نمتلك ما يكفينا من الغذاء والكساء وسُبُل العيش الكريم، دون الاعتماد على المساعدات الغربية ودون الدخول فى آليات الرأسمالية الجهنمية التى حوّلت العالم بالفعل إلى ما أطلقوا عليه الرأسمالية النفاثة التى لا مجال فيها إلا لأحد احتمالين، إما أن تأكل و إما أن تؤكل، ونحن بالطبع لا نريد أياً منهما، بل نريد أن نخرج من دائرتهما الجهنمية وتوعية العالم بالالتفات حول نموذج اقتصادى جديد يراعى العدالة ويحفظ حقوق الجميع، جميع الدول وجميع العاملين، وعدالة توزيع الموارد وتوظيفها لخدمة الإنسان على هذه الأرض التى استخلفنا الله عليها»[1].

ويزيد النشار قضية سوء توزيع الثروة أو ما يطلق عليه فلسفياً اسم «العدالة التوزيعية» وضوحاً بتوجيه النقد إلى انعدام المساواة وغياب الأطر العامة للعدالة التوزيعية التى زادت فيها الهوة بين الطبقات فيقول: «فالتمايز الطبقى فى موضوعات الخطاب اليومى هو تمايز بين مقولات الجسد والمعرفة والمعدة، فالطبقة العليا أكثر اهتماماً بموضوعات تتصل بالجسد والمتع الحسية، فى حين أن الطبقة الوسطى أكثر اهتماماً بموضوعات تتصل بالعلم والمعرفة ومشكلاتها، أما الطبقة الدنيا فأكثر اهتماماً بموضوعات الطعام والمأوى وكافة مشكلات المعاش.

ولو دققنا النظر فى الموضوعات التى تتداولها هذه الطبقات الثلاث فى خطابها لوجدنا أن الطبقتين العليا والدنيا لا يهتم الناس فيها إلا بالمطالب الحسية - الجسدية، و إن كان اهتمام الأولى بها للاستزادة من المتع الحسية ورفاهتها إلى أقصى حد ممكن، بينما اهتمام الثانية ينصب على توفير ما هو

(1)) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص148.

ضرورى فيها للاستمرار فى الحياة لا أكثر، وبين هاتين الطبقتين التناقض بين قيم الثراء والغنى الفاحش، وبين قيم الفقر والخوف من الموت جوعاً، إنه: «التناقض الذى يكشف وجود الخلل فى التركيبة الاجتماعية والنظام الاجتماعى الذى لا يوجد فيه آلية محددة للتأمين الاجتماعى ضد الفقر والحرمان تأخذ من ثراء الغنى لتسد جوع الفقير وتقرب المسافة الاجتماعية بينهما»[1].

أضف إلى ذلك أحد أهم مظاهر غياب العدالة الاجتماعية، والتى تتجلى فى عدم المساواة أمام القانون، إنها عدالة عرجاء، مزدوجة المعايير، تطبق على الضعفاء فقط دون الأقوياء، يقول النشار: «إن من أهم أمراضنا وأوجاعنا إذن غياب العدالة، ومن ثمّ غياب النظام، والتخلص من هذا الوجع لا يمكن إلا بالعودة إلى تحقيق العدالة بالتطبيق الحازم للقانون فى كل صغيرة وكبيرة، على كبار القوم قبل صغارهم، على أثريائهم قبل فقرائهم، على الحكام قبل المحكومين و إن التزم الأوائل بالقانون وطبقوه على أنفسهم قبل غيرهم فى كل صغيرة وكبيرة التزم به الآخرون وكانوا فى غاية السعادة بهذا الالتزام لأنه سيعود عليهم بكل فائدة»[2].

تلك هى الثمرة الطبيعية لدولة القانون، سيادة القانون تعنى سيادة العدالة، وسيادة العدالة تعنى سيادة الأمن والاستقرار، وغياب العدالة يعنى الفوضى وعدم الاستقرار، يقول النشار: «إن غياب العدالة وشعور الإنسان العادى بهذا الغياب هو ما يجعله فوضوياً غير ملتزم بأى نظام، لأنه فى قرارة نفسه

(1) د. مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ص108

(2) د. مصطفى النشار، الأورجانون العربى للمستقبل، ص161.

يـدرك أنه وحده الذى عليـه أن يلتزم، بينما الآخرون من أصحاب السـطوة والسـلطان يتباهـون بأنهم فوق القانـون!! وحينما تغيـب العدالة ولا يحترم القانون فلا مدنية هناك ولا تحضر»[1].

فـما أكثر ما تسـمع عبارات «أنا فـلان» و«أنا ابن فلان» على المسـتوى الشـخصى، وعلى المسـتوى الاجتماعى «هذا المستشـار فلان» أو «الضابط فـلان» مع أن هـذه الوظائف أدعـى لأصحابها لاحـترام القانـون واحترام مبادئ العدالة إلا أنه نظراً للثقافة المتخلفة السائدة لدينا، فإن الموازين كلها تتقلب، ليصبح الضابط المنوط بحفظ النظام هو أول من يكسر لوائح النظام وقوانينه، وليصبح المسئول المنوط به الالتزام بالوقت واحترام المواعيد كونه قـدوة للجميع هـو أول من ينتهك هـذه المبادئ، والكل يلتمـس له الأعذار بمنتهـى اللامبالاة، دون أن يعلم هؤلاء وأولئك أن المسـئولية ليسـت شرفاً ولا ترفاً بقدر ما هى أمانة فى عنق صاحبها عليه أن يرعاها حق رعايتها.

إن غياب العدالة بشتى أنواعها، سواء عدالة توزيع الثروات والتى تعانى منهـا مجتمعاتنا العربية أيمـا عناء، وهو ما أدى إلى ازديـاد الهوة بين الطبقات لدرجة وصلنا معها إلى انعدام الطبقة الوسطى، فالطبقة العليا تملك كل شىء، والطبقة الدنيا لا تملك أدنى شىء، وما بين الطبقتين تكمن الأوجاع التى تؤرق الضمائر الحرة....

أيضاً غياب العدالة القضائية وحق المسـاواة أمام القانون يُشعر المواطن بانعدام المواطنة، بل و يتحذ من وطنه عدواً له، وتتفشى هذه المشاعر خاصة بـين المطحونين والأميـين الذين لا يمتلكـون أدنى وعى بحقـوق أو واجبات

(1) المصدر نفسه، ص160.

المواطنة، وتغزوهم تلك القيم السلبية التى لو استمرت لأغرقت الجميع..... ولأحرقت الجميع.... ولأضاعت الجميع....

إن غياب العدالة هو الوقود المستعر لهباً لأى ثورة أو فوضى، ومن ينسى ثورة يناير 2011م، تلك الثورة التى كان من أهم دعائمها غياب العدالة الاجتماعية، لذا كانت هى المطلب الأول الذى رفعه الثوار وحلموا به، وهى أحد أهم عوائق صناعة نهضة عربية، على الأقل لأن هؤلاء المطحونين هم وقود تلك النهضة على الأقل وهم صانعوها، فكيف وقد حُرموا من العدالة؟

إنها الحلم الذى طال انتظاره، العدالة الاجتماعية، التى وضعنا النشار أمامها وجهاً لوجه كأحد شروط صناعة مجتمع يحترم ذاته و يستطيع صناعة نهضة حقيقية، ليضعنا مباشرة أمام الحلم الفلسفى كامل الأركان بقوله: «إن شعور الإنسان بالحرية وبالسعادة لا يكتمل إلا إذا عاش فى بيئة نقية وفى مجتمع مستقر يسوده قيم العدالة والإخاء والمساواة والتوزيع العادل للثروة، و يسوده كذلك التعاون البنّاء والحوار المشترك بين جميع البشر، فهل ينجح الفلاسفة التطبيقيون ومن يناصرهم من المعنيين بقضايا التقدم العلمى ومن المحملين بهموم البشر وخاصة فى دول العالم النامى أو المتخلف، هل ينجحون فى مهمتهم المستحيلة وهى الدعوة إلى مجتمع إنسانى خال من كل صور التمييز والتعصب، خال من الفقر والأمية، خال من الظلم والاستبداد»[1].

إنه حلم جميل، ليس يوتوبياً بإعتبار سمو دعوته، ولكنه واقعياً تماماً بإعتبار فطرة الإنسان التى جُبلت على حب الخير والسلام والأمن والأمان، فهل نعى تلك الدعوة، وهل نجدد روافدها؟ وهل نحن قادرون على تخطى

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص10.

تلـك العقبة الكؤد وصولاً إلى صناعة نهضة حقيقية؟ نعم، كل ذلك فى تقدير الله، ولكنه وقف على مدى عزيمتنا، ومرهون بإرادتنا.

4- كثرة الأقوال وندرة الأفعال:

من أكبر عوائق صناعة نهضة عربية، بل ولعله العائق الأبرز لأنه متأصل فى فطرة وجبلة الإنسان العربى، كثرة الأقوال وقلة الأفعال، فنحن أمة فُطرت على حب الكلام، أمة اشـتُهرت بالشـعر والفصاحة والبيان، لذا جاء القرآن الكريـم إعجـازاً كونه من جنس ما برعـت فيه تلك الأمة، فجـاء بإعجازه اللغوى وبيانه المحكم والمتشـابه تحدياً لنحاة وعباقرة العرب ليأتوا بسـورة من مثله وما اسـتطاعوا لأن القـرآن ليس بكلام بشر، ولأن البشر مهما بلغوا سمواً ونضجاً فى التعبير اللغوى فلن يبلغوا براعة القرآن.

وينتقد النشار أمة القول هذه، فالأقوال لا تبنى، والأمم لا تُبنى إلا بالعمل، لا بالكلمات الرنانة، لذا ينبغى أن يكون الحديث مساوقاً للفعل، وأن تكون اللغة واضحة المعنى، بحيث ينتج عن اللغة الصحيحة فعل صحيح، يقول النشار: «إن قيـم المجتمعات المتخلفة قيـم ضبابية يفقد فى ظلها الأفراد الصدق والشـفافية ويستبدلونها بقيم الغموض والكذب واستخدام لغة يغلُب عليها الطابع اللفظى، إذ تجدهم يسـتخدمون الألفاظ الرنانة الفضفاضـة التى تعبر عن معانى ضخمة وقيم تبدو فى ظاهرها عظيمة ولكنها لا تشير فى الواقع إلى مدلالوت محددة! إنها ألفاظ معبرة عن معانى فضفاضة مطاطة ليس تحتها أى واقع»[1].

لقـد اتخذنـا من الخطابة سُـلماً للرقـى، فإذا به سـلماً للنكسـة والتخلف والتأخر، ظننا سـحر الأقوال مطية للتقدم، فإذا به مطية التخلف عن ركب

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص50 - 51.

الأمم، فسبق الباقون، فسبق الباقون ومكثنا فى أماكننا ننظر يُمنة ويُسرى لعلنا نجد طوق نجاة، فلم نجد سوى مزيداً من التأخر، يقول النشار :" لقد عُرف العرب منذ فجر تاريخهم بحب اللغة الأدبية وبتفضيل الخطابة على الأداء ومن ثمّ اهتموا بحب العيش بين الكلمات والدوران حول المعانى الفضفاضة والكلمات الرنانة، تلك المعانى والكلمات التى يصعُب تحويلها إلى واقع، وما ذلك إلا لأنها ببساطة معانى وكلمات لا تشير إلى واقع محدد يمكن التفاعل معه بعد الإشارة إليه!!

وهنا يكمن سر كبير من أسرارا تخلفنا عن الركب الحضارى العالمى المعاصر، إنه المتعلق باستخدامنا للغة غير أدائية وغير قادرة على التفاعل مع الواقع ومن ثمّ فهى أصبحت غير ذات تأثير عليه، وأصبحنا بحق نعيش بين الكلمات ولا نتخذ منها وسيلة للعمل إلا فى أضيق الحدود»[1].

ما المطلوب إذن؟

بكل بساطة، وبدون تفلسف، لا أمل فى غير الموازنة بين اللغة والأداء، فإذا ما أتقنا الأداء، لا مانع بعد ذلك من الإشادة بأمجادنا لغوياً، والتفاخر بتقدمنا وبما أنجزناه فى سُلم الحضارة، أما قبل صناعة تلك النهضة وذاك التقدم، فلا حق لنا أبداً فى التغنى باللغة وتشييد بنيانها على حساب الفعل، خاصة وأننا فى وطننا العربى لا نجيد سوى الكلام، الكلام الذى لا يقدم ولا يؤخر، يقول النشار: «إننا نُقر بأن ما نقرأه وما نقوله وما نسمعه صباح مساء يختلف عما نراه فى واقع الحال من أفعال على أرض الواقع، لقد تربينا على العيش بين الكلمات وأدمنا الكلمات المعسولة الفضفاضة ذات المغزى التفاؤلى المخدر،

(1) المصدر السابق، صـ50 - 51.

أدمنا ان نؤجل المشكلات أو نحلها مؤقتاً عبر الكلمات والخطط النظرية الفضفاضة للإصلاح، وكم كان نزار قبانى صادقاً حين قال: «مقتلنا يكمن فى لساننا - فكم دفعنا غالياً ضريبة الكلام» وكم كان بليغاً حينما عبّر عن حالة الإنفصال بين الأقوال والأفعال: «إذا خسرنا الحرب... لا غرابة، لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة .. بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة، لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة»[1].

هذا هو منطقنا، حتى فى ساعة الأزمة، وعند اشتداد الخطوب، ما أكثر ما نقول وأقل ما نعمل .. لا سبيل إلى الخلاص إذن غير إخلاص السبيل والتوجه ناحية العمل، ناحية البناء، بناء المصانع و إنتاج السلاح الذى ندافع به عن أرضنا ومقدساتنا وكرامتنا، لا أن نهلل للأحداث أونصول ونجول شعراً ونثراً، بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة بتوصيف نزار قبانى، يقول النشار بعد الحديث عن استمرار الإنتفاضة فى فلسطين والرفض العربى لإسرائيل فى حديث يُعد أبلغ توصيف لحال أمتنا: «.. لقد هللنا كثيراً وفرحنا، وعبرّنا عن فرحتنا بكلمات، ثم بكلمات ولا أفعال! وهذه آفة آفاتنا فى العصر الحاضر، حينما نحزن نتكلم، وحينما نفرح نتكلم، وحينما نشجُب نتكلم، وحينما نُهنئ نتكلم، إلخ... لقد استبدلنا الفعل بالكلام!! وكأننا صدقنا قول من قال منا أننا (أى العرب) مجرد ظاهرة صوتية!

لقد كان رد فعلنا إزاء هذه الأحداث سواء المؤلمة أو الإيجابية رداً كلامياً لا أكثر! فلم نكن على مستوى الحدث بأى صورة من الصور، وضاع منا إيماننا الواعى بهذه الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة ص55 - 56.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، وبمثيلاتها مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2 - 3] إن القول فى الآيتين الكريمتين يرتبط بالفعل، و إذا انفصم هذا الارتباط فقد فقدنا أحد جوانب الإسلام وأحد أركان الإيمان».

ويتم النشار حديثه متسائلاً :" فماذا فعلنا لمسلمى أفغانستان!، لم نساعدهم على امتلاك استقلالهم الفعلى، فتركناهم يتحاربون دون أن نتحرك لرأب الصدع ولم الشمل والتوفيق بينهم، تركناهم دون مساعدة اقتصادية حقيقية تُحول الدمار الذى خلفه الحرب إلى بناء.

وماذا فعلنا لإخواننا فى البوسنة والهرسك الذين ما إن أعلنوا الاستقلال حتى اجتاحتهم جحافل الصرب تشبعهم قتلاً وتشريداً واغتصاباً؟

لقد أصدرنا بيانات الشجب والإدانة وكأن أمرهم كأمر أى حدث عالمى تعودنا إدانته تقليداً واتباعاً فى الوقت الذى كان يجب علينا - لو تحلينا بقليل من الوعى والضمير اليقظ والإحساس بالجسد المسلم الواحد - أن نهُب لنُعلن للعالم أجمع أننا سنقاتل من أجلهم! إن مجرد هذا الإعلان لم يصدر حتى بعد أن عُقد مؤخراً مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بعد أن كادت تُمحى سراييفو من الوجود، وبعد أن أدان العالم كله تلك الجرائم البشعة التى تُرتكب بحق هؤلاء المسلمين، فكنا نحن آخر من أدان وآخر من تكلم!!

وحينما تكلمنا كان كلامنا ناعماً كالحرير، فلم نهدد بالمشاركة فى الحرب الدائرة هناك نجدة لإخوان لنا فى الدين رغم بُعد الوطن»[1].

(1) د. مصطفى النشار، ضد العولمة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2،سنة 2001، ص268 - 269.

والسؤال الآن، هل استنكار النشار استنكار يأس أم استنهاض للعزيمة؟

ولعل الإجابة تتضح بين ثنايا الكلمات، فالهموم العربية والإسلامية كثيرة، والواجب علينا استبدال فلسفة تجميل القول بفلسفة اتقان الفعل، لأن الأقوال لن تقدم أو تؤخر، ولو تكلم العرب كلهم من المحيط إلى الخليج فى أزمة مثل الأزمة السورية، لما ساوى كلامهم صاروخاً واحداً يطلقونه على مقر بشار الأسد، ذالكم الطاغية الذى شرّد شعبه وأعطى الفرصة على طبق من ذهب للمتشددين لحمل السلاح، والمقصد الرئيسى هنا أن أدنى إجراء فعلى تقوم به الحكومات العربية والإسلامية أفضل من كلامهم مجتمعين لمدة ألف سنة، فهل نعى هذا الدرس.

ويا ليت الأمر يقتصر على صانعى القرار ومتلقوه، ولكن تلك الآفة تطال النخبة أيضاً، إذ عليهم عبء تغيير تلك الثقافة، ولكنهم للأسف متورطون فيها من النخاع حتى أخمص القدمين، إنهم لا دور لهم، ولا وعى، ولا أدنى تقدير للمسئولية، يقول النشار: «لكن ماذا يفعل المثقفون العرب الآن، إنهم يمارسون «اللافعل» ويستمتعون بذلك، فهم قد اكتفوا فى معظم الأحيان «بالرغى والثرثرة» فى كافة الميادين دون هدف قومى واضح يستهدفونه ويُلحون فى طلبه وتحقيقه! فهم إما من كاتبى الأشعار والروايات، وهؤلاء باستثناءات جد قليلة - يكتبون ما يستغلق على الأفهام، ويعيشون بين الكلمات المستغلقة التى يكتبونها، ولم يُعد التفاعل مع غيرهم يعنيهم فى شىء، فقد اكتفوا بحضور ندوات بعضهم البعض، والكتابة للصحف والمجلات التى تدفع أكثر للحصول على المال الوفير، وتحقيق رغد العيش! وإما أنهم من كُتّاب المقالات والأبحاث، وهؤلاء إن كانوا من المتخصصين

فى السياسة اكتفوا فى الغالب بكتابة مقالات لا تخرج عن كونها «ثرثرة سياسية» كثرثرة الرجل العادى دون تعمق أو دراية، أو هى تحليلات ناقدة يكتبونها دون أن يرسموا أمامنا طريق الخروج من الأزمات السياسية التى يحللونها ودون أن يُبصروننا بالطريق الذى ينبغى أن نسلكه للإفلات من السياسات والمخططات العالمية التى تحاك لنقع فى حبائلها!»[1].

فإذا كان هذا حال ما يُسمى بالنخبة، فكيف يكون حال العامة؟!

إن من يسمون أنفسهم بالنخبة عليهم عبء كبير ومسئولية أكبر لن يستطيعوا الإفلات منها أمام الضمائر الحية فى الدنيا، وأمام الله يوم القيامة، فهم المسئولون عن توعية الشعوب العربية والإسلامية وتبصيرها بالصواب وتحذيرها من الخطأ، لا أن يدوروا فى فلك السلطة وجوداً وعدماً، فأياً كانت السلطة فهم فى ركابها، وأياً كان السلطان فهم من أتباعه، ليملئوا كروشهم على حساب الشعوب، على حساب المصلحة العامة، وعلى حساب توعية حقيقية للشعوب الغافلة لتنهض من رقدتها.

ما الحل إذن؟ وما المخرج؟

ليس من سبيل سوى التفكير العلمى واتباع سبيل الغرب فى تلك المنهجية، حيث التتبع للمشكلات والأخذ بالجوهر لا بالعرض، باللب لا بالقشور، يقول النشار: «إن التفكير العلمى ومهاراته أصبحت من مكتسبات الإنسان الغربى فى كل مجالات حياته، وهذا ما نريده نحن لقومنا، نريد لهم أن يفكروا بهذه الطريقة العلمية الموضوعية الدقيقة فلا يجرون وراء حلو

(1) المصدر نفسه، ص282 - 283.

الكلام ومعسول الألفاظ، وإنما يزنون كل لفظ بميزان الواقع، يزنونه بميزان فائدته فى حل مشكلة، أو تفسير أى شىء غامض، نريدهم أن يخرجوا من إطار اللفظ إلى اطار المعنى الذى يشير إليه، فإن وجدوا أنه يشير إلى معنى يمكن التحقق منه أو رأوه فى الواقع فأهلاً به، وإن لم يجدوا ذلك فلا جدوى من هذا اللفظ ولا جدوى من العبارات التى يتواجد فيها!»[1].

وهذا هو أكبر فارق وأعظمه بين الحضارة العملية التى تلتمس أبواب العلم والمدنية ليرتفع شأنها وبين الحضارة اللفظية التى لا تتعدى مجرد القول، بضعة بيانات، وبضعة كلمات، وبضعة ورقات لا تُغنى ولا تُسمن من جوع.

تلك هى أبرز عوائق صناعة نهضة عربية فى فكر مصطفى النشار، تُرى كيف السبيل إلى الخلاص منها؟ أو بمعنى أدق، إذا كانت تلك هى المعوقات التى تقف حجر عثرة فى وجه صناعة التقدم، فما هى آليات تلك الصناعة؟ وكيف السبيل إلى نهضة عربية حقيقية تنال احترام العالم بأسره، كما سبق وفعلت اليابان، وكما سبق وفعلت الصين، وكما سبق وفعلت النمور الآسيوية؟ فهل نحن أقل منهم فى شىء؟ وهل اليابان التى هى ثلث مساحة مصر وعدد سكانها ضعف عدد سكان مصر، ورغم كافة تلك المعوقات استطاعت أن تصنع نهضة حقيقية، فهل قوة العرب مجتمعة وإمكانياتهم مجتمعة إذا ما توافرت الإرادة وخُلصت النوايا غير قادرة على صناعة النهضة؟ إنه السؤال منقوص الإجابة، هكذا،- وعلى أقل تقدير - شاءوه أن يكون منقوصاً، فكيف السبيل إذن إلى الاكتمال؟!

(1) د. مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، ص52 - 53.